العلم .. بداية الطريق

- منزلة العقل والعلم فى الإسلام .
- أثر العلم فى الإيمان والسلوك .
- طلب العلم فريضة على كل مسلم .
- حقوق العلم على أصحابه .
- الصوفية والعلم الشرعى .

تمهيـــد

من المعروف لدى المسلمين بالتواتر : أن أول ما نزل من الوحى الإلهى على قلب محمد ﷺ هو : الآيات الأولى من سورة العلق التى لقنها أمين الوحى ، والرسول المَلَكى جبريل عليه السلام ، إلى الرسول البَشرى محمد عليه الصلاة والسلام فى أول لقاء بينهما عند غار حراء .

كانت هذه الآيات هى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١) .

كان لأولية نزول هذه الآيات الكريمة دلالتها وإيحاؤها ، فهى توحى بفضل العلم وتقديمه على غيره ، فبه تبدأ الأمور ، وتفتتح الأعمال . فقد أمرت الآيات بالقراءة مرتين : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ، ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ والقراءة هى باب العلم ومفتاحه .

وقد نزل بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾(٢) .

فجاءت هذه الآيات آمرة بالعمل ، سواء أكان عملاً متعلقاً بالناس : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ، أم بالرب تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ ، أم بالنفس : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ . وسواء أكان عملاً متعلقاً بالفعل كالأشياء المذكورة أم بالترك ، مثل ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ، والمراد : سب الرجز - وهو العذاب - والمراد : هجر

---

(١) العلق : ١ - ٥ (٢) المدثر : ١ - ٧

المعصية ، وكذلك ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ ثم سياج ذلك كله ، وهو الصبر لله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ .

وبهذا فهمنا من القرآن : أن العلم مُقدَّم على العمل ، لأنه هو الذى يصحح العمل ، ويرشد إلى شروطه وأركانه ، ولهذا قيل : « العلم بغير عمل جنون ، والعمل بدون علم لا يكون » .

ولكننا نلاحظ أن القراءة التى أمر بها القرآن فى آياته الأولى ليست مجرد قراءة ، إنما هى قراءة باسم الله ، باسم ربنا الخالق ، ومعنى أنها باسمه سبحانه : أنها بإذنه وبأمره ، وأنها موجهة إليه ، موصولة به ، فليست باسم صنم يُعبد ، ولا طاغوت يُطاع ، ولا بَشر يُعظَّم من دون الله . فهى قراءة مؤمنة بالله ، خالصة له ، مقيَّدة بأحكامه .

وهذا يوحى : أن العلم فى الإسلام إنما هو علم فى حضانة الإيمان ، فالعلاقة بينهما علاقة التواصل والتلاحم ، لا التقاطع والتنافر ، علاقة التكامل ، لا علاقة التعارض ، وهذا ما سيظهر بجلاء فى الصحائف التالية : أن العلم دليل الإيمان ، كما أنه إمام العمل ، والعمل تابعه .

لا عجب أن نبدأ بـ « العلم » فى هذه السلسلة اهتداءً بالقرآن العزيز ، واقتداءً بما فعله الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابيه « الإحياء » و« المنهاج » ، فقد بدأ كلا منهما بـ « العلم » ، وحتى تكون دعوتنا إلى الله دعوة على بصيرة وبيِّنة ، كما قال الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُواْ إِلَى اللهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِى ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

ونختم هذا التمهيد بهذا الدعاء المأثور :

« اللَّهُمَّ علِّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علَّمتنا ، وزدنا علماً . . نحمدك اللَّهُمَّ على كل حال ، ونعوذ بك من حال أهل النار » .

* * *

(١) يوسف : ١٠٨

الفصل الأول

منزلة العقل والعلم فى الإسلام

● فضل العقل فى الإسلام :

لا يوجد دين غير الإسلام كرَّم العقل والفكر وأشاد بأُولى الألباب والنُهَى ، ودعا إلى النظر والتفكر ، وحرَّض على التعقل والتدبر ، وقرأ الناس فى كتابه : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) ، و﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ (٢) ، و﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) ، و﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤) ، و﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُواْ ﴾ (٥) ، و﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ (٦) ، و﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٧) ، و﴿ لآيَاتٍ لقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٨) .

ومن أروع ما جاء فى القرآن قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ، أَن تَقُومُواْ لِلّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ (٩) . ومعناه : أنه لا يطلب منهم إلاَّ خصلة واحدة ، وهى أن يتوجهوا بعقولهم وقلوبهم إلى الله الذى يؤمنون به ، وبخالقيته للكون وتدبيره لأمره ، مخلصين فى طلب الهداية إلى الحقيقة ، بعيداً عن تأثير « العقل الجمعى » ، وعن الخوف من الناس أو المجاملة لهم ، كل فرد مع صديقه ممن يثق به ، ويطمئن إليه ، أو يفكر وحده ، وهو معنى قوله : ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ ، ثم يتفكروا فى أمر النبوة ، وسيهديهم فكرهم الحر إلى الحق .

وقد اعتبر علماؤه أن العقل مناط التكليف ، ومحور الثواب والعقاب ، كما قرروا أن العقل أساس النقل ، إذ لو لم يثبت وجود الله بالعقل ، ويثبت صدق النبى بالعقل ، ما ثبت الوحى ، فالعقل هو الذى يثبت النبوة ، ويثبت صدق النبى عن طريق المعجزة الدالة على صدقه دلالة عقلية ، ثم بعد ذلك يعزل العقل نفسه ، ليتلقى عن الوحى الذى هو سُلْطة أعلى منه .

---

(١) البقرة : ٤٤ (٢) الغاشية : ١٧ (٣) البقرة : ٧٣
(٤) البقرة : ٢١٩ (٥) الأعراف : ١٨٥ (٦) الروم : ٨
(٧) البقرة : ١٦٤ (٨) يونس : ٢٤ (٩) سبأ : ٤٦

ومن هنا قرر المحققون من علماء الإسلام : أن إيمان المقلِّد المطلق غير مقبول ، لأنه لم يُؤسَّس على برهان ، ولم يقم على حجة بيِّنة ، بل على تقليد محض : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (١) .

والقرآن يطالب كل ذى دعوى بإقامة البرهان على دعواه ، وإلَّا اطرحت ورفضت ، ولهذا قال فى محاورة المشركين : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ (٣) .

وقال فى محاجة أهل الكتاب : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤) .

فالعقائد لا بد أن تُؤسَّس على البراهين اليقينية ، لا على الظنون والأوهام . ولهذا عاب الله المشركين بقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ (٥) ، ﴿ وَقَالُوا مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٦) .

ليس فى الإسلام إذن ما عُرِف فى بعض الأديان الأخرى من اعتبار الإيمان شيئاً خارج منطقة العقل ودائرة التفكير ، وإنما يؤخذ بالتسليم المطلق ، وإن لم يرتضه العقل ، أو يسانده البرهان ، حتى شاع عندهم مثل هذا القول : « اعتقد وأنت أعمى » ! أو « أغمض عينيك ثم اتبعنى » !

ويحرم على المسلم أن يتبع الظنون والأوهام ، معطلاً الأدوات التى وهبه الله إياها لتحصيل المعرفة الصحيحة ، وهى : السمع والبصر والفؤاد ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٧) قال العلماء فى تفسير هذه الآية : إن الله تعالى نهى عن القول بلا علم ،

---

(١) الزخرف : ٢٣ (٢) النمل : ٦٤ (٣) الأنبياء : ٢٤
(٤) البقرة : ١١١ (٥) الجاثية : ٣٢ (٦) الجاثية : ٢٤
(٧) الإسراء : ٣٦

بل بالظن الذى هو التوهم والخيال ، وفى الصحيحين : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » [1] ، وفى سنن أبى داود وغيره : « بئس مطية الرجل : زعموا » [2] .

إن تعطيل السمع والبصر والفؤاد ينزل بالإنسان من أُفق الإنسانية العاقلة إلى حضيض البهيمية الغافلة ، بل يجعل الإنسان أضل سبيلاً من الأنعام ؛ لأنها لم تؤت ما أوتى من قوى التمييز والإدراك ، فكان جديراً أن يكون من حطب جهنم : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [3] .

لقد عاب القرآن على المشركين اتباعهم للظن فى تكوين العقائد التى لا يغنى فيها إلا اليقين القائم على البصيرة والبرهان . وفى ذلك يخاطبهم فيقول فى شأن آلهتهم : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ﴾ [4] ، ويقول فى هذا السياق نفسه : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ [5] .

وعاب على أهل الكتاب فى قضية قتل المسيح ما عابه على الوثنيين فقال : ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَا * بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ﴾ [6] .

ولا يحل لمسلم أن يأخذ فكرته عن الوجود : مبدئه ومنتهاه ، وعلّته وأسراره ، إلا عن رب الوجود ، فكل ما يتصل بمسائل الغيب والعقيدة فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وغايات الحياة وأسرار الكون ، ليس له مصدر إلا وحى الله المنزَّل على رسوله ، المؤيَّد بالآيات البيِّنات ، الدالة على صدق نبوته ، القاطعة بصحة رسالته .

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة .
(٢) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة - صحيح الجامع الصغير (٢٨٤٦) .
(٣) الأعراف : ١٧٩
(٤) النجم : ٢٣
(٥) النجم : ٢٨
(٦) النساء : ١٥٧ - ١٥٨

إن مَن أراد أن يعرف فكرة صحيحة كاملة عن دقائق جهاز ما ، وعن الغاية من صنعه ، فلا بد أن يأخذها من صانعه نفسه ، والله تعالى هو صانع هذا الكون ، علويه وسفليه ، بمن فيه وما فيه ، وما نبصره وما لا نبصره ، وهو وحده القادر على أن يمدنا بالحقائق الصادقة عن هذا الوجود وأسراره وغاياته : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

وكل النظريات والفلسفات التى زعمت أنها فسَّرت الوجود وخباياه ، والحياة وأسرارها ، إنما هى فروض ظنية يضرب بعضها بعضاً ، ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٢)

* *

● فضل العلم والعلماء :

والقرآن الكريم أعظم كتاب أشاد بالعلم وأهله ، ورفع قدر « أُولى العلم » و« العالمين » ، ونوَّه بمكانة « الذين أُوتوا العلم » ، كما بيَّن أنه أنزل كتابه وفصَّل آياته ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ، كما بثَّ آياته فى الآفاق وفى الأنفس لهؤلاء الذين يعلمون .

يقول تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ (٤) ، فانظر كيف بدأ الله تعالى بنفسه ، وثنَّى بملائكته ، وثلَّث بأولى العلم ، واستشهد بهم على أعظم قضايا الوجود ، وهى قضية الوحدانية .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥) ، وهو استفهام إنكارى معناه نفى التسوية بين أهل العلم وأهل الجهل . كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ ﴾ (٦) .

فالجهل بمثابة العمى ، والعلم بمثابة البصر ، والجهل كالظلمة ، والعلم كالنور ، والجهل حرارة قاتلة ، والعلم ظل ظليل ، والجهل موت ، والعلم حياة ، ولا يمكن أن يستوى الضدان فى هذا كله .

---

(١) الملك : ١٤ (٢) النجم : ٢٨ (٣) البقرة : ٢٣٠
(٤) آل عمران : ١٨ (٥) الزمر : ٩ (٦) فاطر : ١٩ - ٢٢

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) ، أى لا يخشى اللهَ إلا العلماءُ الذين يعرفون مقامه ، ويقدِّرونه حق قدره . والعلم الحقيقى هو الذى يورث الخشية .

وقد جاءت هذه الآية - أو هذا الجزء من الآية - بعد أن ذكر الله سبحانه بعض آياته فى خلقه : فى السماء والماء والنبات والجبال ، ومن الناس والدواب والأنعام . مما يوحى بأن العلماء المذكورين هم علماء الطبيعة والكون والأرض والنبات والإنسان والحيوان . اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (٣) .

والأوفق بـ « العالمين » هنا : أنهم العلماء بالظواهر الكونية فى الفلك وفى الأرض ، والعلماء باختلاف الألسنة والألوان ، أى علماء الكون ، وعلماء الإنسان .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) . فالأقرب أن القوم الذين يعلمون هنا : هم علماء الفلك والطبيعة الجوية ، فهم أقدر الناس على معرفة أسرار الله تعالى واكتشاف سننه فى جعل النجوم للاهتداء .

ومن هنا نرى أن العلم الذى أشاد به القرآن ليس مقصوراً على علم الدين وحده ، وإن كان علم الدين له الصدارة والأولوية ، لأنه العلم الذى يتعلق

---

(١) فاطر : ٢٨
(٢) فاطر : ٢٧ - ٢٨
(٣) الروم : ٢٢
(٤) الأنعام : ٩٧

بالمقاصد والغايات ، وعلوم الدنيا تتعلق بالوسائل والآلات ، ولكنها مهمة أيضاً لنماء الحياة وبقائها كما يريد الله تعالى .

وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ ﴾ (١) .

* *

● منزلة العلم فى حياة الأنبياء :

ومَن قرأ قصص الأنبياء فى القرآن وجد أن للعلم مكاناً فى كل منها ، وأن العلم كان وراء كل خير أو فضل أحرزه واحد منهم .

فآدم عليه السلام - أبو البَشر - إنما فضَّله الله على الملائكة ، وأظهر تفوقه عليهم ، وأنه المرشح الصالح للخلافة فى الأرض ، بسبب « العلم » الذى علَّمه الله إياه ، ولم يُعلِّمه للملائكة ، ولهذا لما سألهم عن أسماء الأشياء - والسؤال عن الاسم يتضمن السؤال عن المسمى وخواصه - قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ (٢) .

وكذلك استطاع آدم أن يتطهر من ذنبه - حين أكل من الشجرة المنهى عنها - بما تعلَّمه من الكلمات التى تلقَّاها من ربه : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) .

ونوح - شيخ المرسلين - نجد أثر العلم فى حُسْن دعوته لقومه ، وجداله لهم حتى أفحمهم . وقالوا : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٤) .

وإبراهيم - خليل الرحمن - آتاه الله الحُجَّة . فحاجَّ نمروذ فأسكته ،

---

(١) العنكبوت : ٤٣ (٢) البقرة : ٣٢ - ٣٣

(٣) البقرة : ٣٧ (٤) هود : ٣٢ - ٣٤

وحاجَّ قومه فغلبهم . وقال لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ (١) .

وقال تعالى فى شأنه : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ (٢) .

ويوسف لما بلغ أشُدَّه آتاه الله حكماً وعلماً ، وعلَّمه من تأويل الأحاديث وتعبير الرؤى ، وكان هذا العلم سبباً فى إخراجه من السجن ، وكذلك كان العلم مؤهلاً لتوليه خزائن الأرض : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) ، فالحفظ يمثل العنصر الأخلاقى ، والعلم يمثل العنصر المعرفى ، وكلاهما يكمل الآخر ، وكلاهما ضرورى لكل مَن يتولى منصباً قيادياً .

ولقد برز يوسف فى علم التخطيط الزراعى والاقتصادى فى أيام الأزمات والمجاعات ، ووضع خطة لخمسة عشر عاماً ، وتولى هو الإشراف على تنفيذها بنفسه ، فأنقذ الله به مصر وما حولها من محنة كادت تودى بها .

وقال الله فى شأن موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) .

ولما أعلم الله موسى أن هناك رجلاً عنده من العلم ما ليس عنده ، سافر إليه سفراً طويلاً لقى فيها النصب والعناء ، وطلب إليه أن يصحبه ، بل أن يتبعه ليتعلم منه مما علَّمه الله ، وهو موسى الذى اصطفاه الله برسالاته وبكلامه ، فاشترط عليه أن يصبر على ما يراه منه ، ولا يبادره بالسؤال حتى يُبيِّن هو له ، وقبل موسى هذا الشرط : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ

---

(١) مريم : ٤٣ (٢) الأنعام : ٨٣

(٣) يوسف : ٥٥ (٤) يوسف : ٢٢

تُحطْ بِهِ خُبْراً * قَالَ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْراً * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلا تَسْئَلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ (١) .

وفى قصة داود وسليمان قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ، وَقَالا الْحَمْدُ للهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (٢) .

ونجد علم سليمان يتجلَّى فى فهم كلام النملة مع النمل ، وفى كلام الهدهد الذى أدلَّ عليه بالعلم ، وقال له : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ (٣) .

وفى قصة سليمان مع ملكة سبأ ، نجد أن الذى أحضر عرشها من اليمن إلى الشام قبل أن يرتدَّ إليه طرفه إنما هو : ﴿ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ (٤) .

كما امتنَّ الله على داود بتعليمه صناعة الدروع : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ (٥) .

وفى قصة طالوت بيَّن الله تعالى أنه اختاره لزعامة القوم وقيادتهم بسبب مؤهلاته العلمية والمادية : ﴿ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ (٦) .

وقال عن المسيح عيسى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (٧) .

وقال عن خاتم رسله محمد ﷺ : ﴿ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (٨) .

* *

● السُّنَّة والعلم :

وجاءت الأحاديث النبوية فأكدت ما جاء فى القرآن من فضل العلم ، ومنزلة العلماء ، من ذلك ما رواه معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » (٩) .

---

(١) الكهف : ٦٦ - ٧٠ (٢) النمل : ١٥ - ١٦ (٣) النمل : ٢٢

(٤) النمل : ٤٠ (٥) الأنبياء : ٨٠ (٦) البقرة : ٢٤٧

(٧) آل عمران : ٤٨ (٨) النساء : ١١٣

(٩) رواه البخارى (١/ ١٥٠ ، ١٥١) ، و(٦/ ١٥٢) ، ومسلم (١٠٣٧) .

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً إلا سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة » (١) .

وعنه مرفوعاً : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (٢) .

فمن خصائص العلم : أن نفعه مستمر ، وأن أجره دائم ، وأنه باق للإنسان حتى بعد موته ، قال الحافظ المنذرى : « وناسخ العلم النافع له أجره وأجر مَن قرأه ، أو نسخه ، أو عمل به من بعده ، ما بقى خطه والعمل به ، لهذا الحديث وأمثاله . وناسخ غير النافع - مما يوجب الإثم - عليه وزره ، ووزر مَن قرأه ، أو نسخه ، أو عمل به من بعده ، ما بقى خطه والعمل به » (٣) .

وعن أبى الدرداء ، عن النبى ﷺ قال : « مَن سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإنَّ العالِم ليستغفر له مَن فى السموات ومَن فى الأرض ، حتى الحيتان فى الماء ! وفضل العالِم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء . وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورَّثوا العلم ، فمَن أخذه أخذ بحظ وافر » (٤) .

قال الإمام الغزالى : ومعلوم أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة ! ويعلق على استغفار مَن فى السموات ومَن فى الأرض للعالِم فيقول : « وأى منصب يزيد على منصب مَن تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له ؟ فهو مشغول بنفسه (أى بعلمه) ، وهم مشغولون بالاستغفار له » !

وعن زر بن حبيش قال : أتيت صفوان بن عسال المرادى رضى الله عنه ، قال : ما جاء بك ؟ قلت : أنبط العلم (يعنى : أطلبه وأستخرجه) ، قال : فإنى سمعت

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) .
(٢) رواه مسلم : (١٦٣١) .
(٣) المنتقى من الترغيب والترهيب (١/ ١٢٥) حديث رقم (٦١) .
(٤) رواه أبو داود (٣٦٤١) ، (٣٦٤٢) ، والترمذى (٢٦٨٣) وابن ماجه (٢٢٣) ، وأحمد فى المسند (٥/ ١٩٦) ، وصححه ابن حبان كما فى (الموارد : ٨٠) ، وضعَّفه بعضهم بالاضطراب فى سنده ، لكن له شواهد يتقوى بها ، ذكره الحافظ فى الفتح (١/ ١٦٩) وهو فى صحيح الجامع الصغير (٦٢٩٧) .

رسول الله ﷺ يقول : « ما من خارج خرج من بيته فى طلب العلم ، إلا وضعت له الملائكة أجنحتها ، رضاً بما يصنع » (١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله ، وما والاه ، وعالماً ، ومتعلماً » (٢) .

والمراد بلعن الدنيا : ذمها ، وهى ليست مذمومة لذاتها ، فإنها مزرعة الآخرة ، وهى دار الإيمان والعبادة والجهاد فى سبيل الله ، وإنما تُذَم من حيث أنها دار للكفر والشر وعبادة الطاغوت ، ومن حيث إنها تشغل عن الله تعالى وعن الدار الآخر . ولهذا استثنى الحديث من الذم كل ما يُذَكِّر الإنسان بربه ، ويصله بحبله ، من ذكر الله ، وما يحبه ويرضاه ، من العلم النافع والعمل الصالح ، والمقصود بالعالِم والمتعلم : مَن يجمع بين العلم والعمل ، فيخرج الجهلاء الذين لا يعلمون ، والذين يعلمون ولا يعملون .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن خرج فى طلب العلم كان فى سبيل الله حتى يرجع » (٣) ، والمراد بسبيل الله : هو الجهاد .

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « مَن جاء إلى مسجدى هذا ، لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلّمه ، فهو بمنزلة المجاهد فى سبيل الله » (٤) ، لأن كُلاً من المتعلم والمجاهد يعمل لتكون كلمة الله هى العليا ، هذا بقلمه ، وهذا بسيفه .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٦) ، وابن حبان (الموارد : ٧٩) ، والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبى (١/ ١٠٠) ، وهو فى صحيح الجامع (٥٧٠٢) .

(٢) رواه الترمذى (٢٣٣١) وحسَّنه ، وابن ماجه (٤١١٢) .

(٣) رواه الترمذى (٢٦٤٩) وحسَّنه ، وفى سنده ضعف ، لكنه يتقوى بحديث أبى هريرة التالى ، فهو شاهد له .

(٤) رواه ابن ماجه (٢٢٧) ، وابن حبان (الموارد : ٨١) ، والحاكم (١/ ٩١) وصحَّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، وهو فى صحيح الجامع الصغير (٦١٨٤) .

كما حثَّت الأحاديث النبوية على إكرام أهل العلم وإعطائهم حقهم من الإجلال والتوقير ، وحذَّرت من إضاعتهم وعدم المبالاة بهم .

فعن جابر : أن النبى ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحُد - يعنى : في القبر - ثم يقول : « أيهما أكثر أخذاً للقرآن » ؟ فإذا أشير إلى أحدهما قدَّمه فى اللَّحد (١) .

وعن عبادة بن الصامت : أن رسول الله ﷺ قال : « ليس من أمتى مَن لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا » (٢) .

* *

• مكانة العلم لدى سَلَف الأُمة :

وقال علىٌّ كرَّم الله وجهه لكميل بن زياد : يا كميل ؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق . وقد شرح ابن القيم هذه الكلمات - المقتبسة من مشكاة النبوة - شرحاً مستفيضاً فى « مفتاح دار السعادة » .

وقال أبو الأسود : ليس شىء أعز من العلم ؛ الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك ! وهذا ما عبَّر عنه الشاعر فقال :

إن الأكـابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر يحكم العلماء !

وسُئل ابن المبارك : مَن الناس ؟ فقال : العلماء ، قيل : فمَن الملوك ؟ قال : الزُهَّاد . قيل : فمن السِّفْلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين ! وإنما لم يجعل غير العالم من الناس ؛ لأن الخاصية التى يتميز بها الإنسان عن البهيمة هى العقل ، وهو إنما يظهر بالعلم .

وقال ابن عباس : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلىّ من إحيائها !

وقال الحسن : يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء ، فيرجح مداد العلماء .

وقال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ (٣) : إن الحسنة فى الدنيا هى العلم والعبادة ، وفى الآخرة هى الجنَّة .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) قال المنذرى : رواه أحمد بإسناد حسن (المنتقى : ٦٩) ، وكذا قال الهيثمى فى المجمع (١/ ٢٧) وفيه : « ويعرف لعالمنا حقه » .

(٣) البقرة : ٢٠١

وقيل لحكيم : أى الأشياء تقتنى ؟ قال : الأشياء التى إذا غرقت سفينتك سبحت معك ! يعنى : العلم [1] .

وقال الإمام أحمد : الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب ، لأن المرء يحتاج إلى الطعام والشراب فى اليوم مرة أو مرتين ، وحاجته إلى العلم بعدد الأنفاس .

وقال بعض السَّلَف : مَن أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومَن أراد الأخرة فعليه بالعلم ، ومَن أرادهما معاً فعليه بالعلم .

* * *

(١) ذكر هذه الآثار الغزالى فى « الإحياء » فى « فضيلة العلم » . وخرَّجها شارحه الزبيدى فى « الإتحاف » .

الفصل الثانى

أثر العلم فى الإيمان والسلوك

● العلم والإيمان فى رحاب الإسلام :

إن أول آيات أنزلها الله من كتابه على رسوله ، أشادت بالعلم والتعليم وأداة التعلم « القلم » ، لأنها أمرت بالقراءة ، والقراءة مفتاح العلم ، يقول تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .

هكذا كان أول أمر من الله فى الإسلام : « اقرأ » ، وقد كرره مرتين فى هذه الآيات تأكيداً لأهميته ، ولكنها ليست مجرد قراءة ، ولكن قراءة باسم الرب الخالق ، ومعنى أنها باسمه : أنها بإذنه وأمره ومباركته . فهى قراءة إيمانية . وهى تشير إلى أن العلم فى الإسلام لا بد أن يكون فى حضانة الإيمان بالله ، وبهذا يكون العلم أداة خير ، لا معول هدم ، يكون للتعمير لا للتدمير .

ولهذا رأينا سليمان عليه السلام حين جاءه عرش بلقيس ملكة سبأ من اليمن إلى الشام فى لمح البصر أو هو أقرب ، جاء به : ﴿ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ (٢) ، كان موقفه موقف المؤمن الذى يعتبر العلم وثمراته نعمة من الله يجب أن تُقابَل بالشكر ، يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (٣) .

---

(١) العلق : ١ - ٥ (٢) ، (٣) النمل : ٤٠

وكذلك كان موقف ذى القرنين حين بنى سده العظيم ، ليحجز شر يأجوج ومأجوج المفسدين فى الأرض ، ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ (١) .

* *

● العلم يهدى إلى الإيمان :

فالعلم والإيمان فى الإسلام يسيران جنباً إلى جنب ، ولذا جمع القرآن بينهما فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ (٢) ، ومثل ذلك قوله : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٣) .

بل يرتب القرآن الإيمان على العلم ، فالمرء يعلم فيؤمن ، ومقتضاه أنه لا إيمان قبل العلم . يقول تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

وهكذا عطف القرآن هذه الثلاثة « العلم . . الإيمان . . الإخبات » بالفاء ، التى تفيد الترتيب والتعقيب كما يقول علماء العربية ، فإذا كان الإخبات ثمرة الإيمان ، فإن الإيمان ثمرة العلم .

وفى هذا يقول القرآن أيضاً : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (٥) .

ويُنوِّه القرآن بالذين « أُوتوا العلم » بأنهم هم الذين يعرفون قيمة القرآن ويؤمنون به ، ويتأثرون بما فيه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ

---

(١) الكهف : ٩٨ (٢) الروم : ٥٦ (٣) المجادلة : ١١

(٤) الحج : ٥٤ (٥) سبأ : ٦

يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ (١) .

ويقول عن القرآن أيضاً : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ (٢) .

* *

● العلم إمام العمل :

ومن فضائل العلم : أنه يسبق العمل ، ويدل عليه ، ويرشد إليه ، وهذا ما ذكره الإمام البخارى فى كتاب « العلم » من صحيحه ، واستدل عليه بالقرآن من مثل قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٣) ، فبدأت الآية بالعلم بالتوحيد ، وثنَّت بالاستغفار وهو عمل .

وفى حديث معاذ المشهور فى فضل العلم الذى ذكره ابن عبد البر وغيره : « تعلَّموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه مَن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قُربة » . . . وفيه قال : « وهو إمام ، والعمل تابعه » .

ومعنى هذا : « أن العلم إمام العمل وقائد له ، والعمل تابع له ، ومؤتم به ، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به ، فهو غير نافع لصاحبه ، بل مضرة عليه ، كما قال بعض السَّلَف : مَن عبدَ الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

والأعمال إنما تتفاوت فى القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ، ومخالفتها له ، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول ، والمخالف له هو المردود ، فالعلم هو الميزان ، وهو المحك .

---

(١) الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩ (٢) العنكبوت : ٤٩ (٣) محمد : ١٩

قال تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (١) .

قال الفضيل بن عياض فى تفسير « أحسن العمل » قال : هو أخلص العمل وأصوبه . قالوا : يا أبا علىّ ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، فالخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السُّنَّة . وقد قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (٢) .

فهذا هو العمل المقبول الذى لا يقبل الله من الأعمال سواه . وهو أن يكون موافقاً لسُنَّة رسول الله ﷺ ، مراداً به وجه الله ، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم . فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده ، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده ، فلولا العلم لما كان عمله مقبولاً ، فالعلم هو الدليل على الإخلاص ، وهو الدليل على المتابعة . وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) ، وأحسن ما قيل فى تفسير الآية : أنه إنما يتقبل الله عمل مَن اتَّقَاه فى ذلك العمل ، وتقواه فيه : أن يكون لوجهه على موافقة أمره ، وهذا إنما يحصل بالعلم . وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه ، علم أنه أشرف شىء وأجلّه وأفضله . . والله أعلم .

ولهذا قال المحققون : إن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل . ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته ، وإن قدر سلامته اتفاقاً نادراً فهو غير محمود ، بل مذموم عند العقلاء .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : « مَن فارق الدليل ضلَّ السبيل ، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول » .

---

(١) الملك : ٢ (٢) الكهف : ١١٠ (٣) المائدة : ٢٧

قال الحسن البصرى : العامل على غير علم كالسالك على غير طريق ، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح ، فاطلبوا العلم طلباً لا تضروا بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلباً لا تضروا بالعلم ، فإن قوماً طلبوا العبادة ، وتركوا العلم ، حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا » (١) .

فمرتبة العلم من وجه : مرتبة المطاع المتبوع المقتدى به المتبع حكمه المطاع أمره ، ومرتبته من وجه آخر مرتبة الدليل المرشد إلى المطلوب الموصل إلى الغاية .

* *

● فضل العلم على العبادة :

ومن فضائل العلم ما ثبت فى الأحاديث : أنه أفضل من العبادة ، وأن العالِم مُقدَّم على العابد .

ففى حديث أبى الدرداء المشهور : « فضل العالِم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » (٢) .

وكذلك جاء فى حديث معاذ بن جبل (٣) .

وفى حديث أبى أمامة : « فضل العالِم على العابد كفضلى على أدناكم » (٤) .

وفى حديث حذيفة وسعد : « فضل العلم أحب إلىّ من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع » (٥) .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ٨٢ ، ٨٣

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان فى صحيحه ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير وزيادته ، وهو جزء من حديث أبى الدرداء (٦٢٩٧) .

(٣) ذكره فى صحيح الجامع الصغير برقم (٤٢١٢) .

(٤) ذكره فى صحيح الجامع الصغير برقم (٤٢١٣) .

(٥) ذكره فى صحيح الجامع الصغير برقم (٤٢١٤) .

وذلك لأن العلم يسبق العمل ، ويدل عليه ، ويرشد إليه ، فهو دليل له من ناحية ، وشرط لقبوله من ناحية أخرى . فلا عمل بلا علم ، وقد يوجد علم بلا عمل ، والمعنى : أنه كلما وُجِد العمل لزم وجود العلم ، بخلاف عكسه . ولهذا قيل : العلم بدون عمل جنون ، والعمل بدون علم لا يكون .

ومن ناحية أُخرى فضّل العلم على العبادة ، لأن نفع العلم متعد ، ونفع العبادة قاصر ، فالعبادة إنما تنفع صحابها ، والعلم ينفع الكافة .

ثم إن نفع العبادة - غالباً - ينتهى بالفراغ منها ، ولكن نفع العلم يبقى إلى ما شاء الله ، ولهذا عُدَّ فى الأمور الباقية للإنسان بعد موته ، فإذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من أشياء معروفة منها : علم يُنتفع به من بعده [1] .

وعلى قدر المنتفعين بعلمه يكون أجره ، فكلما اهتدى به مهتد إلى طريق الخير ، واسترشد به مسترشد فى معرفة الحلال من الحرام ، والهدى من الضلال ، كان له أجره ، كما جاء فى الحديث : « من دَلَّ على خير فله مثل أجر فاعله » [2] .

ولأن العلم إما فرض عَيْن ، وإما فرض كفاية ، وكلاهما أفضل من الاشتغال بالنوافل .

ولأن العلم من صفات الله تعالى ، والعمل من صفات المخلوقين ، فهو هنا يتخلَّق بخُلق من أخلاق الله تعالى ، إن صح التعبير ، أو يتصف بصفة من صفاته ، واسم من أسمائه الحسنى .

ولأن العلم هو الذى يكشف الغوامض من المسائل ، ويفصل فى دقائق الأمور ، كما رأينا فى حديث الذى قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل رجلاً عابداً هو أعبد أهل الأرض فى زمنه : هل له من توبة ؟ فقال له : لا توبة

---

(١) الحديث رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة . .

(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى عن ابن مسعود - صحيح الجامع الصغير برقم (٦٢٣٩) .

لك ، فقتله ، وأكمل به المائة ، ثم سأل رجلاً عالماً ، هو أعلم أهل الأرض فى زمنه : هل له من توبة ؟ فقال له : نعم ، وأمره أن ينتقل من القرية الظالمة الفاسدة إلى قرية أخرى صالحة (١) .

ولأن العلم هو الذى يُبيِّن الحق من الباطل فى الاعتقادات ، والصواب من الخطأ فى المقولات ، والمسنون من المبتدَع فى العبادات ، والحلال من الحرام فى التصرفات ، والصحيح من الفاسد فى المعاملات . والفضيلة من الرذيلة فى السلوكيات ، والمقبول من المردود فى المعايير ، والراجح من المرجوح فى الأقوال والأعمال (٢) .

وبدون العلم يمكن أن يعتقد المرء الباطل وهو يحسبه حقاً ، ويرتكب البدعة ، وهو يظنها سُنَّة ، ويتورط فى الحرام وهو يتوهمه حلالاً ، ويسقط فى حمأة الرذيلة وهو يتصورها فضيلة ، ولهذا كان من الأدعية المأثورة : « اللَّهُمَّ أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه » . حتى لا يكون المرء ممن ﴿ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ (٣) .

وقد حذَّرت الأحاديث الصحاح من فئة من الناس « يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم ، وصيامه إلى صيامهم ، وقراءته إلى قراءتهم » ، ولكنهم « يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » ، ومعنى قوله : « لا يجاوز حناجرهم » : أن القرآن لا تفقهه عقولهم وقلوبهم ، لأنه مجرد ألفاظ وأصوات تخرج من حناجرهم ، فآفتهم ليست فى ضمائرهم ونيَّاتهم ، بل فى عقولهم وأفهامهم ! ولهذا وُصِفوا بأنهم : « يدعون أهل الأوثان ، ويقتلون أهل الإسلام » ! وهؤلاء هم الخوارج الذين حاربهم علىّ بن أبى طالب والصحابه معه . ولهذا جاء فى حديث معاذ المشهور فى فضل العلم : أنه إمام والعمل تابعه .

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة .

(٢) انظر : كتابنا « فى فقه الأولويات » ص ٥٨

(٣) فاطر : ٨

وذكر الإمام البخارى فى كتاب « العلم » من صحيحه : أن العلم يسبق العمل ، واستدلَّ لذلك بالقرآن والحديث .

وقال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز : مَن عمل على غير علم ، كان ما يفسد أكثر مما يصلح ! (١) .

ومن المعروف : أن كثيراً من الأئمة صرَّحوا بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم .

فقال الشافعى : ليس شىء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم ، وهذا الذى ذكر أصحابه عنه أنه مذهبه .

وكذلك قال سفيان الثورى ، وحكاه الحنفية عن أبى حنيفة .

وأما الإمام أحمد ، فحُكِىَ عنه ثلاث روايات ، إحداهن : أنه العلم . فإنه قيل له : أى شىء أحبَ إليك : أجلس بالليل أنسخ أو أُصلِّى تطوعاً ؟ قال : نسخك تعلم به أمور دينك ، فهو أحب إلىّ . . وذكر الخلال عنه فى كتاب « العلم » نصوصاً كثيرة فى تفضيل العلم ، ومن كلامه فيه : الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب .

والرواية الثانية : أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاة التطوع ، واحتج لهذه الرواية بقوله صلى الله عليه وسلم : « واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة » ، وبقوله فى حديث أبى ذر وقد سأله عن الصلاة ، فقال : « خير موضوع » ، وبأنه أوصى مَن سأله مرافقته فى الجنَّة بكثرة السجود وهو الصلاة . وكذلك قوله فى الحديث الآخر : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحطَّ عنك بها خطيئة » ، وبالأحاديث الدالة على تفضيل الصلاة .

والرواية الثالثة : أنه الجهاد ، فإنه قال : « لا أعدل بالجهاد شيئاً . ومَن ذا يطيقه » ؟ ولا ريب أن أكثر الأحاديث فى الصلاة والجهاد .

---

(١) ذكره ابن عبد البر فى « جامع بيان العلم » : ١/ ٢٧ - طبعة دار الكتب العلمية بيروت .

وأما مالك . . فقال ابن القاسم : سمعت مالكاً يقول : إن أقواماً ابتغوا العبادة ، وأضاعوا العلم ، فخرجوا على أمة محمد ﷺ بأسيافهم ، ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك .

قال مالك : وكتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب : أنه قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا ، فكتب إليه عمر : أن أفرض لهم من بيت المال . فلما كان فى العام الثانى كتب إليه : أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير - لأكثر من ذلك - فكتب إليه عمر : أن امحهم من الديوان ؛ فإنى أخاف من أن يسرع الناس فى القرآن أن يتفقهوا فى الدين ، فيتأوَّلوه على غير تأويله !

وقال ابن وهب : كنت بين يدى مالك بن أنس ، فوضعت ألواحى ، وقمت إلى الصلاة (يعنى النافلة كما يدل السياق) فقال : ما الذى قمت إليه بأفضل من الذى تركته .

قال شيخنا : وهذه الأُمور الثلاثة التى فضَّل كل واحد من الأئمة بعضها ، وهى : الصلاة ، والعلم ، والجهاد ، هى التى قال فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لولا ثلاث فى الدنيا لما أحببتُ البقاء فيها : لولا أن أحمل أو أجهز جيشاً فى سبيل الله ، ولولا مكابدة هذا اللَّيل ، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقَى أطايب التمر ، لما أحببتُ البقاء .

فالأول : الجهاد . والثانى : قيام اللَّيل . والثالث : مذاكرة العلم . فاجتمعت فى الصحابة بكمالها ، وتفرَّقت فيمن بعدهم .

وقد حكى ابن القيم ما ذكره أبو نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فضل العلم خير من نفل العمل ، وخير دينكم الورع » . وقد روى هذا مرفوعاً من حديث عائشة رضى الله عنها . وفى رفعه نظر .

قال : « وهذا الكلام هو فصل الخطاب فى هذه المسألة ، فإنه إذا كان كل من العلم والعمل فرضاً فلا بد منهما كالصوم والصلاة . فإذا كانا فضلين - وهما النفلان المتطوع بهما - ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها ،

لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه ، والعبادة يختص نفعها بصاحبها ، ولأن العلم تبقى فائدته وعلمه بعد موته ، والعبادة تنقطع عنه » [1] .

ومن وجوه فضل العلم على العبادة التى ذكرها العلامة ابن القيم فى « المفتاح » : أنه يدل صاحبه على العمل الأفضل عند الله ، وإن كان أقل من غيره مشقة ، فصاحب العلم أقل تعباً ومعاناة ، وهو أكثر مثوبة وأجراً ! قال : واعتبر هذا بالشاهد ، فإن الصُنَّاع والأُجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم ، والأستاذ المعلِّم يجلس يأمرهم وينهاهم ، ويريهم كيفية العمل ، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه .

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال : « أفضل الأعمال إيمان بالله ، ثم الجهاد » [2] ، فالجهاد فيه بذل النفس ، وغاية المشقة ، والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه ، وهو أفضل الأعمال ، مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة . وهذا لأن العلم يعرِّف مقادير الأعمال ومراتبها ، وفاضلها من مفضولها ، وراجحها من مرجوحها ، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال . والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة فى كثرة المشقة ، فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولاً ، وربَّ عمل فاضل ، والمفضول أكثر مشقة منه .

واعتبر هذا بحال الصدِّيق (أبى بكر رضى الله عنه) فإنه أفضل الأمة . ومعلوم أن فيهم مَن هو أكثر عملاً وحَجّاً وصوماً وصلاةً وقراءةً منه . قال أبو بكر بن عياش : ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن بشىء وقر فى قلبه ! وهذا موضوع المثل المشهور :

مَن لى بمثل سيرك المدلل ؟ تمشى رويداً وتجى فى الأول ! [3]

* *

(١) مفتاح دار السعادة : ١/١١٩ ، ١٢٠

(٢) رواه البخارى (٣:٢٠٣) ومسلم (٨٣) عن أبى هريرة : سئل النبى : أى العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ورسوله » . قيل : ثم ماذا ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » .

(٣) مفتاح دار السعادة : ١/ ٨٢

● العلم دليل السلوك :

وليس العلم مطلوباً لمعرفة الأحكام الظاهرة فى الفقه فقط ، كما قد يظن الكثيرون ، بل هو مطلوب لسلوك الطريق إلى الله أيضاً ، بل ربما كان طلبه هنا أشد وألزم ، لدخول الأوهام والأهواء والتلبيسات على الإنسان فى هذا الجانب أكثر من غيره .

نرى الإمام الغزالى فى مقدمة كتاب « الإخلاص » من « الإحياء » بعد أن بيَّن ضرورة تصحيح النية وإخلاص العبادة لله ﴿ وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ (١) . يقول رحمه الله :

« وليت شعرى كيف يصحح نيَّته مَن لا يعرف حقيقة النية ، أو كيف يخلص مَن صحح النيَّة إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحق معناه ؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى : أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة ، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص ، اللَّذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص » (٢) .

ثم نرى الغزالى يعود فيتحدث عن أثر النية فى أقسام الأعمال من طاعات ومعاص ومباحات ، ويبدأ بعلاقتها بقسم المعاصى فيقول :

« اعلم أنَّ الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل وقول ، وحركة وسكون ، وجلب ودفع ، وفكر وذكر - وغير ذلك مما لا يُتصوَّر إحصاؤه واستقصاؤه - فهى ثلاثة أقسام : معاص وطاعات ومباحات .

« القسم الأوّل » المعاصى : وهى لا تتغير عن موضعها بالنية ، فلا ينبغى

---

(١) البينة : ٥

(٢) الإحياء مع شرحه للزبيدى : ٦/١٣ - طبعة دار الكتب العلمية ببيروت .

أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيَّات » . فيظن أنّ المعصية تنقلب طاعة بالنية ، كالذى يغتاب إنساناً مراعاة لقلب .

أو يطعم فقيراً من مال غيره ، أو يبنى مدرسة أو مسجداً أو رباطاً بمال حرام ؛ وقصده الخير . فهذا كله جهل ، والنية لا تؤثر فى إخراجه عن كونه ظلماً وعدواناً ومعصية . بل قصده الخير بالشر - على خلاف مقتضى الشرع - شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع ، وإن جهله فهو عاص بجهله ؛ إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم ، والخيرات إنما يُعرف كونها خيرات بالشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً ؟ هيهات ! بل المروِّج لذلك على القلب خفى الشهوة وباطن الهوى ؛ فإنَّ القلب إذا كان مائلاً إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس ، توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل ، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى : ما عُصِىَ الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل ! قيل : يا أبا محمد ؛ هل تعرف شيئاً أشدّ من الجهل ؟ قال : نعم ، الجهل بالجهل . وهو كما قال ، لأنّ الجهل بالجهل يسدّ بالكلية باب التعلم ، فمَن يظن بنفسه أنه عالِم فكيف يتعلم ؟

وكذلك أفضل ما أُطيعَ الله تعالى به : العلم ! ورأس العلم : العلم بالعلم ، كما أنّ رأس الجهل : الجهل بالجهل . فإنّ مَن لا يعلم العلم النافع من العلم الضارّ ، اشتغل بما أكبَّ الناس عليه من العلوم المزخرفة التى هى وسائلهم إلى الدنيا ، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم ، والمقصود أنّ مَن قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور ، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ، ولم يجد بعد مهلة للتعلم . وقد قال الله سبحانه : ﴿ فَسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، وقال النبى ﷺ : « لا يَعذر الجاهل على الجهل ، ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ، ولا للعالم أن يسكت على علمه » (٢) .

---

(١) الأنبياء : ٧

(٢) قال الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء : أخرجه الطبرانى فى الأوسط =

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس الحرام : تقرّب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار ؛ المشغولين بالفسق والفجور ، القاصرين هممهم على مباراة العلماء ، ومباراة السفهاء ، واستمالة وجوه الناس ، وجمع حطام الدنيا ، وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين ، فإن هؤلاء إذا تعلّموا كانوا قُطّاع طريق الله تعالى ! وانتهض كل واحد منهم فى بلدته نائباً عن الدجّال ! يتكالب على الدنيا ، ويتبع الهوى ، ويتباعد عن التقوى ، ويستجرى الناس بسبب مشاهدته على معاصى الله تعالى . ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ، ويتخذونه أيضاً آلة ووسيلة فى الشر واتباع الهوى ، ويتسلسل ذلك ، ووبال جميعه يرجع إلى المعلّم الذى علّمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصى من أقواله وأفعاله ، ومن مطعمه وملبسه ومسكنه ، فيموت هذا العالِم وتبقى آثار شره منتشرة فى العالَم ألف سنة مثلاً وألفى سنة ، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ! ثم العجب من جهله حيث يقول : « إنما الأعمال بالنيّات » . وقد قصدتُ بذلك نشر علم الدين ؛ فإن استعمله هو فى الفساد فالمعصية منه لا منى ، وما قصدتُ به إلا أن يستعين به على الخير . وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يُحسّن ذلك فى قلبه ، والشيطان بواسطة حب الرياسة يُلبّس عليه : وليت شِعرى ما جوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق ، وأعدّ له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده ؛ ويقول : إنما أردتُ البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وقصدتُ به أن يغزو بهذا السيف والفرس فى سبيل الله تعالى ، فإن إعداد الخيل والرباط والقوّة للغزاة من أفضل القُربات ، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصى . وقد أجمع

= وابن السنى وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله : « لا يُعذر الجاهل على الجهل » وقال : « لا ينبغى » بدل : « ولا يحل » .

الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى » [1] .

* *

● العلم والمـال :

لقد بيَّن حديث النبي ﷺ - الذى رواه أحمد والترمذى عن أبى كبشة الأنمارى - أن للعلم أثره فى سلوك صاحبه ، وقد قسم الناس إلى أصناف أربعة بالنظر إلى موقعهم من العلم والمال .

يقول الحديث : « إنما الدنيا لأربعة نفر : عبدٌ رزقه الله مالاً وعلماً ؛ فهو يتقى فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل . . وعبدٌ رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية ، يقول : لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، فأجرهما سواء ! . . وعبدٌ رزقه الله مالاً ، ولم يرزقه علماً ، يخبط فى ماله بغير علم ، ولا يتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل ! . . وعبدٌ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته ، فوزرهما سواء » [2] .

قسم الحديث الناس وحظوظهم فى الدنيا إلى أربعة أصناف :

الصنف الأول - وهو أفضلهم - مَن أوتى علما ومالاً ، والمقصود بالعلم هنا : نور البصيرة ، وحُسْن الإدراك ، والمعرفة الراسخة ، التى تضىء لصاحبها الطريق ، وتبُيِّن له العواقب ، فنفعه العلم بأن دلَّه على أن المال وسيلة لا غاية ، وأنه مُستخلَف فيه ، وأن لله فيه حقاً ثابتاً ، فاتقى فيه ربه ، ووصل فيه رحمه ،

---

(١) إحياء علوم الدين : ٤/ ٣٣٧ ، ٣٣٨

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٣١) ، والترمذى (٢٣٢٦) وقال : حسن صحيح .

فأحسن بذلك إلى نفسه ، وأحسن إلى الناس بعلمه وماله ، فهو كما قال الحديث : « بأفضل المنازل » .

والصنف الثانى : يلى الأول فى المرتبة ، وهو : مَن أُوتى علماً ، ولم يؤت مالاً ، فهو لم ينفق ولم يتصدق ولم يصل الرحم بالفعل ، وإنما فعل ذلك بالنية التى علم الله صدقها منه . والنية ليست مجرد خاطرة طائرة تمر بالبال ، كشرارة لامعة ثم تنطفئ ، بل هى خط نفسى عميق ، يجعل صاحبه يعيش بهذا الأمر ، حالماً به ، راغباً فيه ، حريصاً عليه ، فالنية هى عقد القلب على العمل ، لهذا استوى فى الأجر هو وصاحب العمل - كما صرَّح الحديث : « فهما فى الأجر سواء » ، وإنما سبب ذلك هو علمه ومعرفته ، مما يدل على أهمية المعرفة فى السلوك الأخلاقى ، فلا فضيلة بلا معرفة ، كما لا عبادة بلا علم .

والصنف الثالث : من أُوتى مالاً ، ولم يؤت علماً ، أى لم يؤت العلم النافع الذى يورث الخشية ، وينير البصائر ، ويحرك العزائم لفعل الخير ، وإن كان صاحبه يحمل أرقى الشهادات ، فهذا أسوأ الناس منزلة ، كما جاء فى نص الحديث : « فهذا بأخبث المنازل » ، وإنما نزل به إلى هذا الدرك جهله وحرمانه من العلم ، فلم يعلم لله فى ماله حقاً ، ولم يصل فيه رحمه ، ولم يحسن به إلى غيره ، ولم يتق فيه ربه ، فكان ماله وغناه طريقاً إلى هلاكه ، فلو عدمه لكان خيراً له ، ولكنه للأسف ، أُعطِىَ ما يتزوَّد به للجنَّة ، فكان زاده إلى النار .

والصنف الرابع والأخير : مَن لم يؤت مالاً ولا علماً ، ولكنه لجهله وعمى قلبه ، عاش وفى نيته أن لو كان له مال لأنفقه فى الشهوات والمعاصى ، مثل ذلك الغنى الجاهل ، فهو يليه فى الرتبة ، ويساويه فى الوزر بنيته الجازمة : « فوزرهما سواء » ، وهذا هو الأحمق حقاً ، فقد خسر الآخرة ، ولم يكسب الدنيا ، بخبث نيته ، وسوء قصده ، وأشقى الناس : مَن اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة .

قال ابن القيم معقباً على الحديث : « فقسم السعداء قسمين ، وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما ، وقسم الأشقياء قسمين ، وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتهما ، فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه . والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته » (١) .

* *

● **العلم يثمر اليقين والمحبة :**

ومن فضل العلم : أنه يثمر اليقين ، الذى به حياة القلب وطمأنينته ، وبه مدح الله المتقين المهتدين بكتابه ، حيث قال : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٢) ، وهم الذين فصَّل الله لهم الآيات ، سواء أكانت آيات تنزيلية مسطورة ، أم آيات تكوينية منظورة ، يقول تعالى : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .

وأثنى الله على خليله إبراهيم بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٦) .

وذَمَّ مَنْ لا يقين عنده بقوله : ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُواْ بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٧) .

ولقد جعل القرآن اليقين أحد عنصرين يرتقى الإنسان بهما إلى الإمامة فى الدين ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ، وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٨) .

والإنسان إذا كان إيمانه ويقينه مزعزعاً ، ناوشته الشبهات من كل جانب ،

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ١٨٠ (٢) البقرة : ٤

(٣) الأنعام : ٩٧ (٤) الرعد : ٢ (٥) الجاثية : ٤

(٦) الأنعام : ٧٥ (٧) النمل : ٨٢ (٨) السجدة : ٢٤

وعرضت له الشكوك عن يمين وشمال ، وذلك لضعف علمه ، وقِلَّة بصيرته ، فيغدو كالريشة فى مهب الريح ، لا تستقر على حال .

أما صاحب اليقين ، فهو - لرسوخه فى علمه ، وقوة إيمانه - كالطود الراسى ، لا يتزعزع ولا يتزلزل ، ولا تؤثر فيه رياح الشكوك والشبهات ، بل هو لو وردت عليه من الشُبَه بعدد أمواج البحر - كما قال ابن القيم - ما أزالت يقينه ، ولا قدحت فيه شكاً ، لأنه قد رسخ فى العلم ، فلا تستفزه الشبهات ، بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة .

وإنما سميت الشبهة شبهة ، لاشتباه الحق بالباطل فيها ، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل ، وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر ، فينظر الناظر فيما ألبسته من اللِّباس ، فيعتقد صحتها ، وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك ، بل يجاوز نظره إلى باطنها ، وما تحت لباسها ، فينكشف له حقيقتها .

ومثال هذا : الدرهم الزائف ، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد ، نظراً إلى ما عليه من لباس الفضة ، والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك ، فيطلع على زيفه ، فاللَّفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللِّباس من الفضة على الدرهم الزائف ، والمعنى كالنحاس الذى تحته .

وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره ، رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ ، ويردها بعينها بلفظ آخر . . . وكم رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللَّفظ قبيح [1] .

إن صاحب العلم واليقين ، الذى رزقه الله البصيرة النافذة ، والنور الكاشف ، لا يلتبس عليه الحق بالباطل ، ولا تروج عنده الشبهات ، كما لا تغريه

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ١٤٠ ، ١٤١

الشهوات ، فهو مزود بسلاحين قويين يرد بهما جيوش الباطل ، فهو يرد جيش الشهوات بسلاح الصبر ، وجيش الشبهات بسلاح اليقين ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

قال ابن القيم : « واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان ، وعليهما ينبنى ، وبهما قوامه ، وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية ، وعنهما تصدر ، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال ، وبقوتهما قوتها ، وجميع منازل السائرين ، ومقامات العارفين ، إنما تفتح بهما ، وهما يثمران كل عمل صالح ، وعلم نافع ، وهدى مستقيم .

قال شيخ العارفين الجنيد : اليقين هو استقرار العلم الذى لا ينقلب ولا يتحول ، ولا يتغير فى القلب .

وقال سهل : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين ، وفيه سكون إلى غير الله !

وقيل : من علاماته الالتفات إلى الله فى كل نازلة ، والرجوع إليه فى كل أمر ، والاستعانة به فى كل حال ، وإرادة وجهه بكل حركة وسكون .

وقيل : إذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار البلاء عنده نعمة ، والمحنة منحة ، فالعلم أول درجات اليقين ، ولهذا قيل : العلم يستحملك واليقين يحملك . فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده ، ولا تثبت قدم الرضا إلا على درجة اليقين » (٢) .

واليقين إنما هو علم راسخ فى القلب لا يعتريه شك ولا وهم ، وهو قابل للزيادة والترقى من علم اليقين ، إلى عَيْن اليقين ، ثم إلى حق اليقين .

---

(١) السجدة : ٢٤

(٢) مفتاح دار السعادة : ١/ ١٥٤ ، ١٥٥

فأنت إذا أخبرك جماعة من الثقات بأن صديقك رجع من سفره ، وهو قادم إليك ، فخبرهم هذا يورث عندك علم يقين بقدومه . فإذا كلمك بالهاتف (التليفون) وقال : أنا قادم إليك ، فقد أصبح عندك عَيْن اليقين ، فإذا قدم عليك بالفعل ، وتلاقت الوجوه وتصافحت الأيدى ، فهذا هو حق اليقين .

ومن هنا وجدنا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يسأل ربه أن يريه كيف يحيى الموت ، لينتقل من علم اليقين إلى عَيْن اليقين ، أو إلى حق اليقين : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ، قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن ، قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

ولقد أسرى الله بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى السموات العلا ، ليريه من آياته ، ويشهده من ملكوته ما آمن به يقينا من طريق الوحى ، فيزداد يقيناً مع يقين ، كما قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ (٢) .

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة : ٢٦٠ (٢) الإسراء : ١ (٣) النجم : ١١ - ١٨

يؤكد ما ذكرناه : أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لمحبته ، وإيثار مرضاته ، المستلزمة لمعرفته ، ونصب للعباد علماً لا كمال لهم إلا به ، وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة على وفق مرضاته ومحبته . ولذلك أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، وشرع شرائعه ، فكمال العبد - الذى لا كمال له إلا به - أن تكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له . ولهذا جعل اتباع رسوله دليلاً على محبته . قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) . فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه : أن يتحرك بحركة اختيارية فى غير مرضاته ، وإذا فعل فعلاً مما أبيح له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه ، كما يتوب من الذنب . ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتى تنقلب مباحاته كلها طاعات ، فيحتسب نومه وفطره وراحته ، كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده . وهو دائماً بين سرَّاء يشكر الله عليها وضرَّاء يصبر عليها ، فهو سائر إلى الله دائماً فى نومه ويقظته .

قال بعض العلماء : الأكياس عاداتهم عبادات الحمقى ، والحمقى عباداتهم عادات .

وقال بعض السَّلَف : حبذا نوم الأكياس وفطرهم ، يغبنون به سهر الحمقى وصومهم ، فالمحب الصادق إن نطق نطق لله وبالله ، وإن سكت سكت لله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضاة الله ، فهو لله وبالله ومع الله .

ومعلوم أن صاحب هذا المقام أحوج خلق الله إلى العلم ، فإنه لا تتميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها ، ولا السكون المحبوب له من غيره ، إلا بالعلم ، فليست حاجته إلى العلم كحاجة مَن طلب العلم لذاته ، ولأنه فى نفسه صفة كمال ، بل حاجته إليه كحاجته إلى ما به قوام نفسه وذاته .

---

(١) آل عمران : ٣١

ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين لمريديهم بالعلم وطلبه ، وأنه مَنْ لم يطلب العلم لم يفلح . حتى كانوا يعدون مَنْ لا علم له من السفلة .

قال ذو النون ، وقد سئل : مَن السفلة ؟ فقال : مَنْ لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفه !

وقال أبو يزيد : لو نظرتم إلى الرجل ، وقد أُعطى من الكرامات حتى يتربع فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ومعرفة الشريعة .

وقال أبو حمزة البزَّاز : مَنْ علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلا متابعة الرسول فى أقواله وأفعاله وأحواله .

وقال محمد بن الفضل الصوفى الزاهد : ذهاب الإسلام على أيدى أربعة أصناف من الناس : صنف لا يعملون بما يعلمون ، وصنف يعملون بما لا يعلمون ، وصنف لا يعملون ولا يعلمون ، وصنف يمنعون الناس من التعلم .

قلت (القائل ابن القيم) : الصنف الأول : مَنْ له علم بلا عمل ، فهو أضر شىء على العامة ، فإنه حجة لهم فى كل نقيصة ومنحسة .

والصنف الثانى : العابد الجاهل ، فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه ، فيقتدون به على جهله ، وهذان الصنفان هما للَّذان ذكرهما بعض السَّلَف فى قوله : احذروا فتنة العالِم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ! فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعُبَّادهم ، فإذا كان العلماء فجرة ، والعُبَّاد جهلة ، عمَّت المصيبة بهما ، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة .

والصنف الثالث : الذين لا علم لهم ولا عمل ، وإنما هم كالأنعام السائمة .

والصنف الرابع : نواب إبليس فى الأرض ، وهم الذين يثبطون الناس عن

طلب العلم والتفقه في الدين ، فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن ، فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه .

فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه ، وهؤلاء كلهم على شفا جرف هار ، وعلى سبيل الهلكة ، وما يلقى العالم الداعى إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم ، والله يستعمل مَنْ يشاء في سخطه ، كما يستعمل مَنْ يحب في مرضاته ، إنه بعباده خبير بصير . ولا ينكشف سر هذه الطوائف وطريقتهم إلا بالعلم ، فعاد الخير بحذافيره إلى العلم وموجبه ، والشر بحذافيره إلى الجهل وموجبه » [1] .

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٥٩ - ١٦١) .

الفصل الثالث

طلب العلم فريضة

● الحث على التعلم :

ومما عنى به الإسلام : الحث على التعلم . فقد خلق الله الناس غفلاً من العلم ، وأعطاهم أدوات العلم ليتعلموا ، فإنما العلم بالتعلم . قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

وقال الشاعر :

تعلَّم ، فليس المرء يولد عالماً   وليس أخو علم كمن هو جاهل !

وقد ذكرنا فى أكثر من حديث : « مَنْ سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنَّة » .

« وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » .

وإن طلب العلم بمنزلة الجهاد فى سبيل الله .

وقال صلى الله عليه وسلم : « خيركم مَنْ تعلَّم القرآن وعَلَّمه » (٢) .

وقال الله تعالى فى كتابه : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) النحل : ٧٨
(٢) رواه البخارى عن عثمان بن عفان .
(٣) التوبة : ١٢٢
(٤) الأنبياء : ٧

وقال ابن عباس : ذللتُ طالباً ، فعززتُ مطلوباً !

وقال ابن المبارك : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة !

وقال بعض الحكماء : إنى لا أرحم رجالاً كرحمتى لأحد رجلين : رجل يطلب العلم ولا يفهمه ، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه !

وقال أبو الدرداء : لأن أتعلم مسألة أحب إلىَّ من قيام ليلة !

وقال : العالِم والمتعلم شريكان فى الخير . وسائر الناس همج لا خير فيهم .

وقال أيضاً : كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ، ولا تكن الرابع فتهلك ! والرابع هو المعرض عن العلم .

ومما يحكى من وصايا لقمان لابنه : يا بنى ؛ جالس العلماء ، وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله سبحانه يحيى القلوب بنور الحكمة ، كما يحيى الأرض بوابل السماء (١) .

وقد ذكر القرآن لنا تلك الرحلة التاريخية التى قام بها نبى من أُولى العزم من الرسل - وهو موسى الذى كلَّمه الله تكليماً ، واصطفاه برسالاته ، وأنزل عليه التوراة فيها هدًى ونور - ليطلب العلم عند رجل لم يذكر القرآن لنا اسمه ، واختلف العلماء فى شأنه : أهو نبى أم ولى ؟ وحتى إن كان نبياً - وهو الصحيح - فليس فى منزلة موسى قطعاً . ويبدو أن موسى قطع هذه الرحلة ، هو وفتاه وخادمه على أقدامهما ، ولذا قال فيها : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾ (٢) .

---

(١) ذكر هذه الآثار الغزالى فى « الإحياء » وخرَّجها شارحه الزبيدى فى « الإتحاف » .

(٢) الكهف : ٦٢

وفى هذه الرحلة التى قصَّها علينا القرآن يتجلى لنا بعض الآداب المهمة للتعلم .

أُولى هذه الآداب : الحرص على العلم مهما يكن فى طلبه من لأواء ومشقة وعناء . كما فعل موسى عليه السلام فى رحلته إلى « مجمع البحرين » وقد لقى فيها ما لقى من النَصَب .

والأدب الثانى : التلطف مع المعلم ، وإظهار الاحترام والتوقير له ، وهذا ما نلمسه بجلاء ووضوح فى تعامل موسى عليه السلام مع هذا العبد الصالح ، الذى عُرِف باسم « الخضر » عليه السلام ، فقد قال له موسى بأدب التلميذ مع المعلِّم : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ (١) .

والأدب الثالث : الصبر على المعلم ، وهذا ما فعله موسى مع معلمه ، فحين عرض عليه أن يتبعه ليعلمه مما علَّمه الله ، قال المعلم : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ (٢) .

والأدب الرابع : أن المؤمن لا يشبع من العلم ، وأنه يطلب أبداً الزيادة منه ، كما قال الله لخاتم رسله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ (٣) . وهذا ما حرص عليه موسى : أن يضيف إلى علمه علماً آخر .

والأدب الخامس : ما نبهت عليه السُّنَّة النبوية ، وهو : أن يتعلم العلم يريد به وجه الله تعالى . وبذلك يغدو طلب العلم عبادة وجهاداً فى سبيل الله . فعن

---

(١) الكهف : ٦٦ (٢) الكهف : ٦٧ - ٧٠ (٣) طه : ١١٤

أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تعلَّم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا ، لم يجد عُرف الجنة يوم القيامة » . . يعنى ريحها (١) .

وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا تماروا به السفهاء ، ولا تخيروا به المجالس ، فمَنْ فعل ذلك ، فالنارُ النارُ » ! (٢) .

* *

● العلم من المهد إلى اللَّحد :

والتعلم أو طلب العلم فى الإسلام لا يقف عند حد معين ، ولا عند سن معينة ، وقد اشتهر عند المسلمين هذه الحكمة : « اطلب العلم من المهد إلى اللَّحد » ، حتى ظنها بعض الناس حديثاً نبوياً ، وما هى بحديث ، ولكنها من مأثور التراث الإسلامى .

وكم رأينا من علماء السَّلَف مَنْ يطلب العلم ، وهو على فراش الموت ، فيسأل بعض أصحابه أو أبنائه أن يقرؤوا عليه تفسير بعض الآيات القرآنية أو بعض الأحاديث النبوية ، أو بعض المسائل الفقهية ، أو نحو ذلك ، حتى يأتيه الموت وهو يطلب العلم .

وكم رأينا من الشيوخ الكبار فى السن ، والكبار فى العلم ، مَنْ يطلب العلم ،

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨) وابن ماجه (٢٥٢) وابن حبان (الموارد : ٨٩) والحاكم وصححه على شرط الشيخين (١/ ٨٥) ووافقه الذهبى . وذكر النووى فى « الرياض » أن إسناد أبى داود صحيح .

(٢) رواه ابن ماجه (٢٥٤) ، (٢٥٩) وابن حبان (الموارد : ٩٠) وقال البوصيرى فى الزوائد : رجال إسناده ثقات ، وقال العراقى فى تخريج الإحياء : إسناد ابن ماجه صحيح ، وذكره الحاكم شاهداً ، وصحح إسناده ، وسكت عليه الذهبى (١/ ٨٦) .

لا يستحى من شيخوخته ولا يستحى من مكانته ، ولا يجد فى ذلك غضاضة ولا حَرَجاً ، ليحقق الحديث الشريف : « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب دنيا » (١) .

وقد حكى لنا الحافظ ابن عبد البر فى كتابه « جامع بيان العلم » صوراً ووقائع شَتَّى .

ولهذا كان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم : إلى متى تطلب العلم ؟ فيقول : إلى الممات .

قال نعيم بن حمَّاد : سمعت عبد الله بن المبارك رضى الله عنه يقول - وقد عابه قوم فى كثرة طلبه للحديث - فقالوا له : إلى متى تسمع ؟ قال : إلى الممات .

وقال الحسين بن منصور الجصاص : قلت لأحمد بن حنبل رضى الله عنه : إلى متى يكتب الرجل الحديث ؟ قال : إلى الموت .

وقال عبد الله بن محمد البغوى : سمعت أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول : إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر .

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ : كنت أصوغ مع أبى ببغداد ، فمر بنا أحمد بن حنبل ، وهو يعدو ، ونعلاه فى يديه ، فأخذ أبى بمجامع ثوبه ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ ألا تستحى ؟ إلى متى تعدو مع هؤلاء ؟ ! قال : إلى الموت .

وقال عبد الله بن بشر الطالقانى : أرجو أن يأتينى أمرى ، والمحبرة بين يدى ، ولم يفارقنى العلم والمحبرة !

وقال حميد بن محمد بن يزيد البصرى : جاء ابن بسطام الحافظ يسألنى عن الحديث فقلت له : ما أشد حرصك على الحديث ! فقال : أوَ ما أحب أن أكون فى قطار آل رسول الله ﷺ ؟!

---

(١) رواه البزار عن ابن عباس ، وابن عدى عن أنس ، وذكره الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٦٦٢٤) .

وقيل لبعض العلماء : متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال : ما حسنت به الحياة !

وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة : أيحسن أن يطلب العلم ؟ قال : إن كان يحسن به أن يعيش [1] .

* *

● العلم المفروض طلبه فرض عَيْن :

فى الحديث المشهور الذى رواه ابن ماجه وغيره : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » [2] .

والمراد بالمسلم فى الحديث : الإنسان المسلم ، رجلاً كان أو امرأة . ولهذا أجمعوا على أن الحديث يشمل كل مسلم ومسلمة ، وإن لم يرد لفظ : « ومسلمة » فى رواية الحديث .

وقد اختلف شرَّاح الحديث فى تحديد « العلم » المفروض طلبه . فكل صاحب اختصاص فى علم أوَّله على العلم الذى يشتغل به .

فالمتكلم قال : هو علم العقائد الذى يعرف به توحيد الله ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

والفقيه قال : هو علم الفقه الذى يعرف به الحلال والحرام . وتعرف به صحة العبادات ، واستقامة المعاملات .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ٧٤

(٢) الحديث روى عن عدد من الصحابة بأسانيد ضعيفة .ولكن الحافظ السيوطى صححه بمجموع طرقه التى بلغت خمسين طريقاً ، كما صححه فى عصرنا العلامة الألبانى فى تخريج كتابنا « مشكلة الفقر » وذكر السخاوى أن ابن شاهين رواه بسند رواته ثقات . وهو فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٩١٣) ، (٣٩١٤) .

والمفسِّر قال : هو علم تفسير كتاب الله ، الذى هو أساس المِلَّة ، ومرجع الأُمة .

والمحدِّث قال : هو علم الحديث المبيِّن للقرآن ، المجسِّد لسيرة الرسول ، وأقواله وأعماله وتقريراته .

والمتصوِّف قال : هو علم طريق الآخرة ، والسلوك إلى الله تعالى ، وكيفية تزكية النفس ، وعلاج مداخل الشيطان إليها . . . . إلخ .

والأُصولى قال : بل هو علم أُصول الفقه . الذى به يعرف الاستدلال فيما فيه نص ، والاستنباط فيما لا نص فيه .

بل هناك مَنْ قال : علم العربية من النحو والصرف والبلاغة ، التى بها يفهم القرآن والحديث .

والذى نراه هنا : أن على المسلم أن يتعلم من دينه ما يعرف به ربه ، ويعرف به نبيه ، ويستيقن بصدق نبوته ، وصحة رسالته ، وأن القرآن المنزَّل عليه من عند الله ، ويعرف العقائد الأساسية فى الإسلام : فى الإلهيات والنبوات والغيبيات المتعلقة بالآخرة والعالَم غير المنظور . وأن يأخذ ذلك من كتاب الله تعالى بما فيه من بيِّنات تقنع العقل ، وتنير القلب ، بعيداً عن التقليد الأعمى ، وعن المماحكات الجدلية ، التى أفسدت تفكير الخواص ، واعتقاد العوام .

والمطلوب هنا : أن تكون دراسة العقيدة مبنية على أساسين :

١ - القرآن الكريم ، لا على أنه أخبار نقلية ، بل بما يتضمنه وما ينبه عليه من براهين ، فقد أنزله الله هدًى للناس ، وبيِّنات من الهدى والفرقان ، ويؤخذ من السنن الصحاح ما يبين القرآن ، وما يسير فى ضوئه .

٢ - العلوم الكونية الحديثة ، بما تكشف للناس من أدلة تعين الناس - وخصوصاً المتشككين - فى وجود الله تعالى وفى وحدانيته ، وإبداعه فى كونه ، وإحسانه لخلقه ، وتقرِّب منهم الحقائق الدينية من النبوة وأُمور الآخرة .

كما أن على المسلم أن يتعلم من أحكام الإسلام وشرائعه ما هو فى حاجة إليه ، من علم الطهارة ، والصلاة ، وهو ما لا يستغنى عنه مسلم ، ومن علم الصيام عندما يجئ رمضان ، ومن علم الزكاة عندما يملك نصابها ، ويتعلم من أنواع الزكاة ما هو مفتقر إليه ، فإن كان تاجراً تعلَّم زكاة التجارة ، وليس مطالَباً بمعرفة زكاة الأنعام أو الزروع والثمار . وإذا قدر على الحج وعزم عليه عرف أهم أحكامه .

كما عليه أن يعرف أهم أحكام الحلال والحرام التى يتعرَّض لها المسلم فى حياته : فى المأكل والمشرب والملبس والزينة ، والبيت ، والعمل ، وحياة الأسرة والمجتمع .

ولا يلزمه أن يتبع مذهباً معيناً ، وخصوصاً إذا كان من أهل العلم ، ويمكنه أن يبحث عن الحكم بدليله . فلا ينبغى لمثله أن يرضى بالتقليد ، فقد أجمع العلماء المتقدمون على أن « العلم » هو معرفة الحق بدليله ، وأن التقليد المطلق ليس علماً !

وقد يُقبل من الشخص العامى أن يتبع مذهباً من مذاهب الأئمة المعروفين إذا لم يجد فى بلده غيره ، على ألا يتعصب له بالحق وبالباطل . وإذا نصحه ناصح أمين من ثقات العلماء أن مذهبه ضعيف فى هذه المسألة ، واطمأن إليه قلبه ، فلا حَرَج عليه أن يدع مذهبه فى هذه القضية ، ويأخذ بالمذهب الراجح ، وهذا ما يسر إمامه الذى يدَّعى اتباعه .

وعلى كل مسلم أن يعرف ما يخصه من أحكام ، فالوالى يعرف أحكام الولاية ، والتاجر يعرف أحكام التجارة ، والزوج يعرف حقوق الزوجية وواجباتها ، والأب يعرف حقوق الأبوة والبنوة . . . وهكذا .

وعلى كل مسلم أن يعرف من علم الأخلاق والآداب الشرعية : ما يضبط به سلوكه بضوابط الشرع ، فلا يحيد عما أمر الله به ، ولا يتجاسر على ما نهى الله عنه ، متحلياً بالفضائل ، متخلياً عن الرذائل .

وعلى كل مسلم أن يعرف من علم طريق الآخرة والسلوك إلى الله : ما يساعده على السير فى الطريق ، ويعرفه بالعوائق والآفات التى تعترضه ، ويقوى البواعث الخيِّرة فى نفسه . حتى يزكى نفسه ويفلح : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ (١) ، ويترقى حتى يصل إلى درجة الإحسان الذى وصفه النبى ﷺ بقوله : « الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٢) .

وهذه هى العلوم التى يجب على كل مسلم معرفتها ، وهى - كما قلنا - موصولة بالكتاب والسُّنَّة ، فمعرفة هذه العلوم تتضمن معرفة ما يلزم من التفسير والحديث .

وهناك علوم مكملة ، ينبغى للمسلم أن يلم بها ، مثل معرفة « السيرة النبوية » ، ودراسة شىء من « علوم القرآن » و« علوم الحديث » أو مصطلحه ، وإذا تعمق فى العلم قرأ شيئاً من « أُصول الفقه » ، على أن تدرس هذه كلها فى كتب ميسرة بلغة معاصرة .

المهم أن يصل المسلم بمعارفه إلى حد يستطيع به : أن يزن أفكاره ومشاعره ، وأقواله وأعماله ، وعاداته ، وسائر أُموره بميزان الشرع ، وأن يحكم على الأشخاص والجماعات والمواقف والسياسات بحكم الإسلام ، ومن منطلق الإسلام ، بعيداً عن إفراط الغلاة ، وتفريط المقصِّرين ، فعلى أساس الإسلام يَحمدَ ويَذُم ، ومن أجله يرضى ويسخط ، ويصل ويقطع ، ويسالم ويحارب ، فما رضيه الشرع رضيه ، وما رفضه الشرع رفضه ، غير عابئ به ولا آسف عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللهَ

---

(١) الشمس : ٩

(٢) متفق عليه من حديث جبريل المشهور .

وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً ﴾ (١) . وبذا يصبح هواه تبعاً لما جاء به محمد ﷺ ، وهذا هو تمام الإيمان .

ومن المفروض فرض عَيْن فى عصرنا : أن يتعلم المسلم القراءة والكتابة ، ويزيل عن نفسه وصمة الأُمية ، فقد أصبحت الأُمية عائقاً للأُمة عن التقدم والتنمية ، وغدا التعلم من أسباب انتصارها وعزتها . وفى ميدان المنافسة الاقتصادية والحضارية فى عصرنا لا مكان لأمة أكثرها من الأميين !

ولقد بدأ النبى ﷺ فى محاربة الأمية فى حياته منذ السنة الثانية من الهجرة ، حين جعل فداء الأسير الكاتب : أن يُعلِّم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة . والواجب علينا اليوم أن نكمل المسيرة ، وألا نتخلف فى السباق الحضارى .

* *

● كيف يحصِّل المسلم العلم المفروض عليه ؟

وهنا يُطرح سؤال تجب الإجابة عنه ، وهو : كيف يستطيع المسلم يحصِّل العلم المفروض طلبه عليه ؟

والجواب عن هذا السؤال يختلف باختلاف أحوال المسلم ، فالمسلم القارئ المتعلم غير المسلم الأُمِّى .

فيستطيع المسلم أن يحصِّل هذا العلم المفروض عليه ، إما بالتلقى والسماع مشافهة من علماء ثقات فى علمهم وتقواهم وحسن فهمهم للدين وللواقع معاً . وهذا ما يلزم الأُميين ، وليس لهم خيار فى غيره ، واجتهاد المسلم هنا فى اختيار العالِم الذى يتلقى منه . ويجب أن يُفرِّق المسلم بين العالِم الواعظ الذى يأخذ منه الموعظة والتذكير ، والعالِم الفقيه الذى يتلقى عنه الأحكام والشرائع ، فليس كل واعظ مؤثر ، أو خطيب مفوه ، يكون ثقة فى فقهه

---

(١) الأحزاب : ٣٦

وفتواه ، فإن الله وزع المواهب والقدرات على الناس ، إلا مَنْ وهبه الله الجمع بين هذه الملَكَات والقدرات ، وقليل ما هم .

ومن وسائل التثقيف فى عصرنا : الشريط المسموع (الكاسيت) ، وهو وسيلة مهمة وسريعة التأثير ، ويمكن للإنسان أن يستخدمه وهو فى سيارته ، أو فى محل تجارته ، أو المرأة فى مطبخها ، أو غير ذلك ، دون أن يتكلف جهداً غير الاستماع والتفهم .

ويضاف إلى ذلك فى عصرنا ما يبثه « التلفاز » من برامج دينية .

وإما بالقراءة والمطالعة لكتب ألَّفها علماء ثقات كذلك ، وستظل للكلمة المكتوبة قيمتها وأثرها فى التوجيه والتثقيف ، وهى الأطول عمراً ، والأبقى أثراً .

وينبغى للمسلم أن يتخير الكتب التى يقرؤها عامة ، والتى يتعلم منها دينه خاصة ، فإن المطابع تُخرج كل يوم الثمين والغث ، والجديد والرث ، فكم فيها من أصيل نافع ، وكم فيها من دخيل ضار ، وعلى المرء أن يأخذ ما صفا ، ويدع ما كدر .

وقد قال أحد الحكماء : أخبرنى ماذا تقرأ ؟ أخبرك : مَن أنت !

هذا . . وقراءة الكتب القديمة لا يحسنها كل أحد ، فهى تحتاج إلى أدوات ومفاتيح خاصة لفهمها ، لما فيها من مصطلحات ، وقضايا علمية متصلة بعلوم مختلفة ، لُغوية وشرعية ، يستغلق فهمها على كثير من الناس ، ولا بد من تلقيها على شيوخها ، ليفكوا رموزها ، ويردوها إلى أُصولها .

ومن هنا حذَّر الراسخون من علماء الأُمة من أخذ العلم عن « الصُحُفيين » ، ويعنون بهم الذين يكوِّنون علمهم من « الصحف » وحدها ، دون أن يعيشوا فى مدارس العلم ، ويعايشوا أهله ، ويخالطوا شيوخه وتلاميذه ، وقالوا فى ذلك قولتهم المشهورة : لا تأخذ القرآن من مصحفى ، ولا العلم من صُحُفى !

فالقرآن لا يؤخذ ممن تعلمه من المصحف وحده ، ولم يتلقه على أيدى شيوخه القُرَّاء المتقنين ، وكذلك العلم .

وفرضٌ على المسلم أن يسأل فى كل ما يعترضه من مسائل أو مشكلات يجهل فيها حكم الشرع ، ولا يجوز له أن يعمل فيها بهواه ، أو حسب رأيه الخاص ، أو رأى مَنْ ليس من أهل العلم والفتوى . ولا عذر له فى ترك السؤال حياءً ، أو كبراً ، أو كسلاً ، أو انشغالاً بأمر الدنيا ، قال تعالى : ﴿ فَسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، و﴿ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم فى شأن قوم أهملوا السؤال فى واقعة حدثت لهم ، ترتب عليها قتل امرئ مسلم : « قتلوه قتلهم الله ، هلا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العى السؤال » (٣) .

* *

● فرض الكفاية فى العلم :

وأما فرض الكفاية ، فقد يكون فى علوم الدين ، وفى علوم الدنيا .

فأما علوم الدين . . فما ليس بفرض عَيْن فيها فإن تعلمه والتبحر فيه فرض كفاية ، بحيث يظل فى الأُمة مَنْ إذا استُفتى أفتى بعلم ، وإذا قضى قضى بحق ، وإذا دعا دعا على بصيرة .

يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) النحل : ٤٣ (٢) الفرقان : ٥٩

(٣) رواه أبو داود عن جابر - صحيح الجامع الصغير (٤٣٦٢) ، ورواه بلفظ آخر أحمد وأبو داود والحاكم عن جابر - المرجع نفسه (٤٣٦٣) .

(٤) التوبة : ١٢٢

فلم يوجب على الجميع النفير لطلب العلم ، إنما أوجبه على طائفة فى كل فرقة . سواء أكانت هذه الطائفة اثنين أو أكثر أو أقل ، ما دامت تكفى لوظيفة الفقيه والإنذار .

كما يدل عليه حديث : « حتى إذا لم يبق عالماً ، اتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً ، فسئلوا بغير علم فَضَلُّوا وأضلُّوا » .

والواجب على الأمة - بالتضامن - أن تهيئ مَنْ أبنائها مَنْ يقوم بهذه المهمة فى الإفتاء والتفقيه والتعليم والدعوة والإرشاد ، فى صورة التخصص العالى ، والعلم الاستقلالى ، وأن يكون لديها العدد الكافى بحيث يلبى حاجتها فى كل بلد من البلدان .

وأما علوم الدنيا . . فأعدل ما قيل فيه ما قاله الإمام الغزالى ، وهو أن فرض الكفاية منها : كل علم لا يُستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا ، كالطب ؛ إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب ، فإنه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما ، وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حَرِج أهل البلد (يعنى : دخل عليهم الحرج والمشقة) وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين .

قال : « فلا يُتعجب من قولنا : إن الطب والحساب من فروض الكفايات ، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات ؛ كالفلاحة والحياكة والسياسة ، بل الحجامة والخياطة ، فإنه لو خلا البلد من الحجَّام (الذى يقوم بجراحة الحجامة ، وهو نوع من الجراحة الخفيفة) تسارع الهلاك إليهم ، وحَرِجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك ، فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ، وأرشد إلى استعماله ، وأعدَّ الأسباب لتعاطيه ، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله .

وأما ما يُعَد فضيلة لا فريضة ، فالتعمق فى دقائق الحساب ، وحقائق الطب ،

وغير ذلك ، مما يستغنى عنه ، ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج إليه » [1] .

وما قاله الغزالى هنا قوى وموافق لمقاصد الشريعة ، فإنها تقصد إلى إنشاء أُمَّة قوية عزيزة مكتفية بذاتها ، قادرة على التصدى لأعدائها ، وهذا يوجب عليها - بالتضامن - أن تتفوَّق فى كل العلوم الطبيعية والرياضية التى تحتاج إليها الأُمم فى عصرنا لتنمو وتتقدم . وليس الطب والحساب فقط ، كما تحتاج إلى الصناعات التكنولوچية المتطورة ، وليس أصول الصناعات القديمة وحدها .

هذا . . ولا نوافق الإمام الغزالى على اعتباره التعمق فى دقائق الحساب ، وحقائق الطب : مجرد فضيلة لا فريضة ، فلعل هذا كان بالنسبة إلى زمنه ، أما زمننا فيعتبر التعمق فى هذه العلوم وما يشبهها من الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء والچيولوچيا والأحياء وغيرها ، بحيث يصل إلى دقائقها ، ويرتقى إلى حقائقها ، فريضة لازمة . والأُمم تتسابق فى هذا تسابقاً خطيراً ، كل تحاول أن تحتل مكاناً يجعل لها قدراً ، ولولا التعمق فى هذه العلوم ما وصل عصرنا إلى تحطيم الذَرَّة ، وغزو الفضاء ، وصناعة « الكمبيوتر » ، والثورة « التكنولوچية » ، وثورة البيولوچيا (هندسة الوراثة والچينات) ، وثورة المعلومات ، وغيرها مما أمسى من خواص عصرنا .

* *

● العلم المباح :

وقد ذكر الغزالى - رحمه الله - العلم المباح ، فضرب له مثلاً بالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها ، والعلم بتواريخ الأخبار وما يجرى مجراه .

وهذا إذا كان بالنسبة للأفراد فهو مسلَّم ، فهو فى حقهم من المباح ، الذى

---

(١) إحياء علوم الدين (١/٢٨) - طبعة دار الشعب ، بمصر .

يمكن أن يتحول إلى طاعة بالنية الصالحة ، بمعنى أن يقصد بتعلمه خدمة الدين ، وإرضاء الله تعالى ، وقد بيَّنا فى كتابنا « ثقافة الداعية » : أن الدراسة اللُّغوية والأدبية ، والدراسة التاريخية - وخصوصاً التاريخ الإسلامى بدءاً من السيرة النبوية وتاريخ الراشدين ، وتاريخ العلماء والمصلحين - من الأدوات الضرورية للداعية .

وأما بالنسبة للأُمة ، والحديث عن الفروض الكفائية الواجبة عليها - فأعتقد أن دراسة الأشعار والأدب ، وكذلك دراسة التاريخ - من فروض الكفاية على الأُمَّة ، فلا بد أن يوجد فيها متخصصون فى هذه المجالات ، يعبِّرون عن فلسفة الأُمَّة وحضارتها ، ويجعلون من دراستهم أداة بناء لها لا معول هدم لكيانها .

ولو تُرِك هذا المجال فارغاً لملأه أولئك الذين يمثلون فلسفات دخيلة على الأُمَّة ، لا تهتم بدينها ولا قيمها ، ولا رسالتها ولا تراثها ، بل تعادى ذلك كله .

وهذا ما عانيناه من ذوى الغرض من المستشرقين من الغربيين ، والمستغربين من أبنائنا الذين لم يتحصنوا بالعلم النافع ، والإيمان الصادق ، والخُلُق المتين .

* *

● **العلم المذموم :**

وذكر الإمام الغزالي هنا : المذموم من العلم ، ومثَّل له بعلم « السحر والطلسمات » ، وعلم « الشعوذة والتلبيسات » .

وهذا صحيح . . فقد ذكر الله السحر فى كتابه وذَمَّه أبلغ الذم ، وقال فى شأن تعلمه : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ (١) .

واعتبر النبى ﷺ السحر من السبع الموبقات ، أى المهلكات للفرد وللجماعة .

---

(١) البقرة : ١٠٢

ومثل ذلك كل علم لا يقوم على أساس صحيح ، أو لا ينفع الناس فى دينهم ولا دنياهم ، بل يعود عليهم بالضرر المادى أو المعنوى .

ومن ذلك : علم التنجيم ، الذى يُدَّعى فيه معرفة الغيوب ، وكشف المستقبل بواسطة النجوم ، فهذا محرَّم ، لأنه ضرب من السحر ، كما جاء فى الحديث الذى رواه ابن عباس : « مَن اقتبس علماً من النجوم ، فقد اقتبس شُعْبة من السحر ، زاد ما زاد » (١) .

فهذا العلم لا يقوم على أساس منطقى أو تجريبى ، وإن صدق فبالاتفاق والمصادفة ، ولذا قيل : كذب المنجمون ولو صدقوا !

وهذا بخلاف « علم الفلك » المبنى على أُسس رياضية وتجريبية ، وقد برع المسلمون فيه أيام ازدهار حضارتهم ، وبرع الغربيون فيه اليوم ، وعلى أساسه استطاعوا الوصول إلى القمر ، ويحاولون الوصول إلى الكواكب الأبعد .

* * *

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس - صحيح الجامع الصغير (٦٠٧٤) .

الفصل الرابع

حقوق العلم على أصحابه

● الفقه وحُسْن الفهم :

أول حقوق العلم على طالبه أو صاحبه : أن يبذل فيه جهده ، حتى يحكمه ويتقنه ويهضمه ، وينتقل به من مرتبة « العلم » إلى مرتبة « الفقه » . الفقه بالمعنى القرآنى والنبوى لا بالمعنى الاصطلاحى ، الذى معناه تحصيل علم الفروع على مذهب من المذاهب .

والفقه بهذا المعنى المنشود أخص من العلم ؛ لأن معناه لغة : الفهم والتفطن وحسن الإدراك ، ومقتضى هذا ألا يقف عند الظواهر ، وإنما يغوص إلى المقاصد ، وألَّا تشغله الألفاظ عما وراءها من معان ، وألَّا تغرقه الجزئيات فينسى الكليات .

والقرآن طلب منا النفير للتفقه فى الدين لا لمجرد التعلم ، فقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ ﴾ (١) .

والحديث النبوى المتفق عليه يقول : « مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » (٢) .

وأول مراتب هذا الفقه : أن ينتقل من الرواية إلى الدراية ، من الحفظ إلى الفهم ، فيفهم عن الله ورسوله مرادهما ، ويسأل أهل العلم ويحاورهم حتى يفهم ويفقه .

---

(١) التوبة : ١٢٢

(٢) متفق عليه عن معاوية ، كما فى « اللؤلؤ والمرجان » (٦١٥) .

وقد قال سَلَفنا : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما هو نور يقذفه الله فى القلب .

وفى الحديث الشريف : « رُبَّ حامل فقه ليس بفقيه » [1] .

والقرآن الكريم قد صوَّر لنا الذى يحمل العلم ولا يفقهه ولا يفهم أسراره ، بالحمار الذى يحمل نفائس الأسفار (أى الكتب) ولا يدرى عما تحتويه شيئاً ، وهذا ما وصف به القرآن اليهود فى عصر النبوة حين قال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [2] .

أخذ هذا المعنى شاعر مسلم ، فوصف به الذين يحملون العلم ولا يعون مقاصده ، ولا يغوصون فيه ، فقال :

* زوامل للأسفار لا علم عندهم *

وفى حديث الصحيحين عن أبى موسى [3] تشبيه العالم الفاهم المعلِّم بالأرض الطيبة التى قبلت الماء الذى نزل عليها من السماء ، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير ، وانتفع الناس بها ، كما شبَّه العالِم الراوى بالأرض التى لم تقبل الماء ، ولكنها احتفظت به ،فشرب الناس منه ، وسقوا وزرعوا ، ففرَّق الحديث بين العلماء الوعاة ، والعلماء الرواة ، ومن هنا ركز علماء السَّلَف على الدراية أكثر من الرواية [4] .

---

(١) جزء من حديث روى بصيغ مختلفة عن زيد بن ثابت وابن مسعود وأنس وغيرهم . انظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٧٦٣ - ٦٧٦٦) .

(٢) الجمعة : ٥

(٣) نص الحديث : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت طائفة أخرى ، إنما هى قيعان ، لا تمسك الماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل مَن فقه فى دين الله ، ونفعه ما بعثنى الله به ، فعَلِم وعلَّم ، ومثل مَنْ لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله ، الذى أرسلت به » (متفق عليه) - اللؤلؤ والمرجان (١٤٧١) .

(٤) انظر تقديم الفهم على الحفظ ، والمقاصد على الظواهر ، والاجتهاد على التقليد ، من كتابنا « فى فقه الأولويات » ص ٦٦ - ٧٢

إن آفة كثير من المشتغلين بعلم الدين خاصة هو « الحرفية » فى فهم نصوصه ، وجمودهم على ظواهر ألفاظه ، وعدم وقوفهم على أسراره ، لأنهم دون هذه المرتبة بحكم مؤهلاتهم العقلية والنفسية ، ولكن مشكلتهم أنهم يضعون أنفسهم فى زمرة « الأئمة » ، ويتصدرون الصفوف للدعوة ، والتعليم والإفتاء !

وهؤلاء عادة يعوقون عملية التغيير المطلوب ، ويقفون عقبة فى طريق الإصلاح والتجديد الإسلامى ، وكثيراً ما شكا منهم المجدِّدون الأُصلاء أمثال ابن تيمية وابن القيم قديماً ، وأمثال محمد عبده ، ورشيد رضا حديثاً .

ولقد رأيناهم أشد على دعاة التجديد والإصلاح من « العلمانيين » وخصوم الدين فى بعض الأحيان ، وقديماً قالوا : عدو عاقل خير من صديق أحمق .

* *

● **الترقى عن التقليد :**

وثانى مراتب الفقه المطلوب : أن يرقى طالب العلم عن التقليد للغير ، إلى الفهم المستقل ، وأن يفكر برأسه هو لا برأس أحد سواه ، حياً كان أو ميتاً ، فإن الله منحه العقل ليتفكر به ويتدبر ، لا ليجمده ويعطله .

وقد قال الإمام ابن الجوزى كلمة مضيئة ينبغى أن نعيها ونرويها لتُحفظ ، قال فى ذم التقليد والمقلِّدين فى كتابه « تلبيس إبليس » : « اعلم أن المقلِّد على غير ثقة فيما قلَّد ، وفى التقليد إبطال منفعة العقل ، لأنه خُلِق للتدبر والتأمل ، وقبيح بمن أُعطى شمعة أن يطفئها ويمشى فى الظلمة » !

لقد شنَّ القرآن حرباً عنيفة على « المقلِّدين » الذين حقروا أنفسهم ، وألغَوْا عقولهم ، متبعين أجدادهم وآباءهم ، أو سادتهم وكبراءهم ، فيما اعتقدوه من عقائد ، وما اعتنقوه من أفكار ، وسفَّههم القرآن أبلغ تسفيه فى سور عدة من القرآن المكى والمدنى .

ويكفينا قوله تعالى فى ذم تقليد الآباء : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وفى ذم تقليد الكبراء قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾ (٢) .

وفى سورة الأعراف تتحدث الآية عن أهل النار ، وتلاوم الأتباع والمتبوعين فيها وتلاعنهم : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

والتقليد - كما يعرِّفونه - أن تأخذ قول الغير بغير حُجَّة بيِّنة تؤيده ، فربما لم تكن معه حُجَّة قط . وربما كانت معه حُجَّة واهية لا تقف أمام حجج من يعارضه . ومصدر ذلك : التعظيم أو التقديس لذلك الغير ، أضفاه عليه المقلِّد التابع ، فرضى لنفسه أن يكون ذيلاً وقد خلقه الله رأساً ، وأن يكون عبداً فى فكره ، وقد خلقه الله حراً .

واتباع الوحى ليس من التقليد فى شىء ، بعد أن ثبت بالبراهين العقلية القاطعة نبوة النبى ، وإلٰهية القرآن ، بعد ثبوت ربوبية الرب الخالق المعلِّم الأكرم ، وثبوت إلٰهية الإلٰه العليم الحكيم ، الرحمن الرحيم ، الذى ينافى حكمته ورحمته أن يدع خلقه هملاً ، ويتركهم سدى .

وبعد ثبوت الوحى بالقواطع العقلية ، يعزل العقل نفسه - بتعبير الإمام الغزالى - ليتلقى الهداية الإلهية التى تصحح للعقل أخطاءه ، وتهديه فيما ليس له إليه سبيل من الإلٰهيات والغيبيات ، وتضع الموازين والضوابط فيما يحتاج إليه ، وتدع له حق التفسير والتعليل فيما أُنزل إليه ، مهتدياً بما بُيِّن له

---

(١) البقرة : ١٧٠ - ١٧١ (٢) الأحزاب : ٦٧ - ٦٨ (٣) الأعراف : ٣٨

من ضوابط . . وتطلق له العنان فى اكتشاف ما فى الكون وتسخيره ، بعقل المؤمن ، وتفكير المهتدى بهَدْى الله .

إن أشد شىء على العقل خطراً - بعد اتباع الهوى - هو التقليد الأعمى ، الذى لا نزال نراه فى حياتنا فى صور شتَّى .

فهناك مَنْ باعوا عقولهم - أو تنازلوا عنها بغير ثمن - لغيرهم ممن يعظمونهم من القدماء أو المحْدَثين .

هناك من المشتغلين بالفقه مَنْ باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها ، لأئمتهم المتقدمين ، أو شيوخهم المتأخرين من الفقهاء .

وهناك من المشتغلين بالكلام والعقائد مَنْ باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها لأئمتهم أو شيوخهم من السَّلَف أو الخَلَف .

وهناك من المشتغلين بالسلوك والتصوف مَنْ باعوا عقولهم لأئمتهم أو شيوخهم ، وتركوا أنفسهم بين أيديهم كالميت بين يدى الغاسل .

وفى مقابل هؤلاء نجد آخرين من المتغربين ، باعوا عقولهم أيضاً أو تنازلوا عنها بغير ثمن لأئمتهم وشيوخهم فى الغرب !

دعاة « الليبرالية » باعوا عقولهم لأئمة الليبراليين ! طالبين منا أن نتبعهم فى الخير والشر ، والحلو والمر ، وما يُحمد وما يُعاب .

ودعاة « الماركسية » - التى هُزِمت فى عقر دارها - باعوا عقولهم لشيوخ الماركسية وأئمتها ، وطالبونا أن نتخذ فلسفتها مصدراً للهداية والتشريع .

وكل دعاة الأيديولوچيات والفلسفات الوضعية المختلفة باعوا لها عقولهم ، ودعونا أن نلغى عقولنا معهم ، لنتبع مناهجهم وأهدافهم شبراً بشبر ، ولم يحاول هؤلاء ولا أولئك أن يحرروا عقولهم من التبعية ، وأن يمتحنوا مذاهب أئمتهم ، وأفكار سادتهم وكبرائهم ، ويعرضوها على قواطع العقل ، وثوابت الوحى ، ليعرف صحيحها من زيفها ، وجيدها من رديئها ، وحقها من باطلها ، فيهتدوا بالحق ، ويعرضوا عن الضلال . . ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ ؟ (١) .

---

(١) يونس : ٣٢

لا يجوز للغرباء أن يتحكموا فى أهل الدار ، ولا ينبغى للأموات أن يحكموا الأحياء ، وأن يفتوا فى أخصِّ أُمورهم ، وهم فى بطون قبورهم !

* *

● العمل بالعلم :

ومن حق العلم على صاحبه : أن يعمل بموجبه ، فالعلم بالعبادات يقتضى أن يؤديها على وجهها ، مستوفية شروطها وأركانها ، خالصة لوجه الله تعالى . والعلم بالمعاملات يقتضى أن يقوم بها فى حدود الحلال ، بعيدة عن الحرام ، مستكملة الشروط والأركان . والعلم بالأخلاق يقتضى أن يتحلَّى بفضائلها ويتخلَّى عن رذائلها . والعلم بطريق الآخرة ، يقتضى أن يعد لها عدتها ، ويسعى لها سعيها ، ويحذر من قواطع الطريق التى تعمل على أن تثبط إرادته ، وتعوق حركته .

وبهذا يكون العلم حُجَّة له ، لا حُجَّة عليه ، ويستطيع أن يجد للسؤال جواباً إذا سُئل يوم القيامة « عن علمه : ماذا عمل فيه » ؟

فعن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره : فيم أفناه ؟ وعن علمه : فيم فعل فيه ؟ وعن ماله : من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه : فيم أبلاه ؟ » (١) .

ولا يكون كذلك العالِم الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وأخلد إلى الأرض ، واتبع هواه ، فضرب الله مثلاً بالكلب فى أسوأ صورة له : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ (٢) .

---

(١) رواه الترمذى (٢٤١٩) وقال : حسن صحيح ، وعن معاذ بن جبل نحوه ، رواه البزار والطبرانى بإسناد صحيح ، كما قال المنذرى فى « الترغيب والترهيب » (المنتقى : ٢٢٥٥) .

(٢) الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦

وإنما ينتصر الدين ، وترتقى الدنيا ، بالعلماء العاملين ، الذين يؤيد عملهم علمهم ، وتصدق أفعالهم أقوالهم ، فهم يؤثرون فى الناس بسلوكهم وحالهم ، أكثر مما يؤثرون بكلامهم ، ولهذا قيل : حال رجل فى ألف رجل ، أبلغ من مقال ألف رجل فى رجل !

وإن من شر ما تُبتلى به الحياة ، ويُبتلى به الناس : العالم الذى يناقض عمله علمه ، ويُكذِّب فعله قوله ، فهو فتنة لعباد الله ، وهو الذى حذَّر القرآن منه أهل الإيمان : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

ووبَّخ القرآن بنى إسرائيل بقوله : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

ولا غرو أن استعاذ النبى ﷺ من العلم الذى لا ينفع .. فعن زيد بن أرقم : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللَّهُمَّ إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » (٣) .

وعن أسامة بن زيد : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « يُجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار ، فتندلق أقتابه (أى تخرج أمعاؤه من مكانها) ، فيدور بها ، كما يدور الحمار برحاه ، فتجتمع أهل النار عليه ، فيقولون : يا فلان ؛ ما شأنك ؟ ألستَ كنت تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : كنتُ آمركم بالمعروف ، ولا آتيه ، وأنهاكم عن الشر وآتيه » !

قال أُسامة : وإنى سمعته - عليه الصلاة والسلام - يقول : « مررتُ ليلة

---

(١) الصف : ٢ - ٣ (٢) البقرة : ٤٤

(٣) رواه مسلم والترمذى والنسائى ، وهو قطعة من حديث ، انظر : المنتقى من الترغيب والترهيب - حديث (٨٣) .

أُسرِىَ بى بأقوام تُقرض شفاههم بمقاريض مَنْ نار ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : خطباء أُمَّتك الذين يقولون ما لا يفعلون » ! (١) .

وصوَّر النبى ﷺ العالِم الذى ينفع الناس بعلمه ولا ينتفع به تصويراً بليغاً ، حين قال : « مثل الذين يُعلِّم الناس الخير وينسى نفسه ، كمثل الفتيلة (يعنى : السراج ، أو الشمعة) تضئ للناس ، وتحرُق نفسها » ! (٢) .

وعن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم اللِّسان » ! (٣) .

وسر هذا الخوف : أن هذا المنافق مزوق الظاهر ، خرب الباطن ، حلو اللِّسان ، مُر العمل ، فهو يغر الناس بظاهر علمه ، ويسحرهم بمعسول كلامه ، وقلبه خاوٍ من اليقين . فالمنافق الجاهل ليس من ورائه خطر يُذكر ، إنما الخطر فى هذا المنافق العليم اللِّسان .

وعن عمر بن الخطاب قال : حذَّرنا رسول الله ﷺ من كل منافق عليم اللِّسان (٤) .

ولهذا كان عمر كثيراً ما يستعيذ بالله من المنافق العليم ، وقد سئل : كيف يكون منافقاً وعليماً ؟ قال : عالم اللِّسان جاهل القلب .

وقال علىٌّ بن أبى طالب : قصم ظهرى رجلان : جاهل متنسك ، وعالِم متهتك ، ذاك يغر الناس بتنسكه ، وهذا يضلهم بتهتكه !

* *

---

(١) الحديث بشقيه متفق عليه ، واللَّفظ لمسلم ، انظر : المنتقى - حديث (٨٤) .

(٢) رواه الطبرانى عن أبى برزة ، وجندب - صحيح الجامع الصغير (٥٨٣٧) .

(٣) قال المنذرى : رواه الطبرانى فى الكبير والبزار ، ورواته محتج بهم فى الصحيح ، انظر : المنتقى - حديث (٨٧) .

(٤) رواه أحمد فى المسند ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح - الحديث (١٤٣) ، (٣١٠) ، وقال الهيثمى (١/ ١٨٧) : رواه البزار وأحمد وأبو يعلى ورجاله موثقون .

● **تعليم العلم ونشره فى الناس :**

ومن حق العلم على العالِم : أن يُعلِّمه للآخرين ، فقد علَّمنا الإسلام أن فى كل نعمة زكاة ، فإذا كانت زكاة المال أن تنفق منه للمحتاجين ، فإن زكاة العلم أن تُعلِّمه للآخرين ، وهذا هو شأن « الربَّانيين » الذين ذكرهم الله فى كتابه بقوله : ﴿ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (١) .

ولهذا قالوا : الربَّانى هو مَنْ يتعلم ، ويعمل ، ويُعلِّم .

ورووا عن المسيح قوله : مَن علم وعمل وعلَّم فذاك يُدعى عظيماً فى ملكوت السماء !

وفى الصحيح : « خيركم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه » .

ولقد تعلَّمنا من القرآن : أن الله تبارك وتعالى هو المعلِّم الأول لخلقه ، فهو الذى ﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) ، ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (٣) ، وهو الذى علَّم أنبياءه ورسله ليعلِّموا أُممهم ، فعلَّم آدم الأسماء كلها ، وعلَّم إبراهيم ، وعلَّم يعقوب ، وعلَّم يوسف من تأويل الأحاديث ، وعلَّم موسى ، وداود وسليمان والمسيح ، وعلَّم محمداً ما لم يكن يعلم .

وكان هؤلاء الرسل مُعلِّمين لأقوامهم ، مُبلِّغين عن ربهم ، مبشِّرين ومنذرين ، وآخرهم محمد ، الذى ذكر الله رسالته فى أربع آيات من كتابه يبين فيها أن مهمته الأساسية مهمة تعليمية ، ويكفى أن نقرأ منها قوله تعالى : ﴿ كَمَا

---

(١) آل عمران : ٧٩ (٢) العلق : ٥ (٣) الرحمن : ١ - ٤

أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام عن نفسه : « إنَّ الله لم يبعثنى معنتاً ولا متعنتاً ، ولكن بعثنى معلِّماً ميسراً » (٢) .

فمَن أراد أن يتصف بصفة من صفات الله تعالى ، وأن يتأسى برسوله الكريم ، فليعلِّم الآخرين .

فعن أبى أُمامة قال : ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان ، أحدهما عابد ، والآخر عالِم ، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « فضل العالِم على العابد كفضلى على أدناكم » ، ثم قال : « إنَّ الله وملائكته ، وأهل السموات والأرض ، حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت ، ليصلُّون على مُعلِّم الناس الخير » (٣) .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً ، فسلَّطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلِّمها » (٤) .

والحسد يُطلق ويُراد به تمنى زوال النعمة عن المحسود ، وهذا حرام ما لم يكن يستخدمها فى معصية الله . ويُطلق ويُراد به : الغبطة ، وهو : أن يتمنى أن يكون مثله ، وهذا لا بأس به ، وهو المراد هنا .

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) البقرة : ١٥١ (٢) رواه مسلم .

(٣) رواه الترمذى (٢٦٨٦) وقال : حسن صحيح غريب ، ورواه البزار مختصراً عن عائشة : « معلِّم الخير يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر » ، وقال الهيثمى (١/ ١٢٦) : رواته موثقون .

(٤) متفق عليه عن ابن مسعود . (٥) التوبة : ١٢٢

فهم يتفقهون فى الدين لِيُنذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، والإنذار : تعليم وإرشاد مقرون بالترغيب والترهيب .

وقد حثَّ رسول الله ﷺ أصحابه على أن يُبلِّغوا عنه كل ما يأخذونه عنه من قرآن أو حديث .

روى عنه عبد الله بن عمرو : « بلِّغوا عنى ولو آية » (١) .

وروى عنه ابن مسعود : « نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً ، فبلَّغه كما سمعه ، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع » (٢) .

وروى عنه جبير بن مطعم : « نضر الله عبداً سمع مقالتى ، فحفظها ووعاها ، وبلَّغها مَن لم يسمعها ، فرُبَّ حامل فقه لا فقه له ، ورُبَّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه » (٣) .

نبَّه الحديث على أن حامل العلم قد يحفظه ولكنه غير قادر على الاستنباط منه ، فهو ينقله إلى غيره ممن هو أفقه وأقدر على استخراج الحكم منه . فيشاركه فى الأجر .

وكل مَن علَّم العلم أو بلَّغه ونشره ، فله أجر مَن انتفع به ، إذا صحَّت

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه الترمذى (٢٦٥٩) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه (٢٣٠) ، وأحمد (١/٤٣٧) ، وابن حبان (الموارد : ٧٤ ، ٧٥) ، وقد روى هذا الحديث عن عدد من الصحابة .

(٣) رواه أحمد وابن ماجه والطبرانى من طريق محمد بن إسحاق ، وله عند أحمد طريق عن صالح بن كيسان عن الزهرى ، وإسنادهما حسن كما قال المنذرى فى الترغيب . انظر : المنتقى - حديث (٦٠) ، وابن ماجه (٣٠٥٦) ، و« مجمع الزوائد : ١/١٣٩» ، ورواه أيضاً الحاكم وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى (١/٨٦ - ٨٨) .

بذلك نيته ، وابتغى وجه الله فيه ، فعن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « مَن دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أُجور مَن تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً » (١) .

وقال النبى ﷺ لعلى : « فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً ، خير لك من حُمُر النعم » (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « على خلفائى رحمة الله » قيل : ومَن خلفاؤك ؟ قال : « الذين يحيون سُنَّتى ويُعلِّمونها عبادَ الله » (٣) .

وهكذا مضى الربَّانيون من علماء الأُمة هداة معلِّمين ، لا يضنون بعلم على مَن طلبه ، بل يكرهون أن يحيوا ولا يستفيد منهم أحد .

قال عطاء : دخلتُ على سعيد بن المسيِّب ، وهو يبكى ، فقلت : ما يبكيك ؟ قال : ليس أحد يسألنى عن شىء !

وقدم سفيان الثورى عسقلان ، فمكث أياماً لا يسأله إنسان . فقال : اكروا لى لأخرج من هذا البلد . هذا بلد يموت فيه العلم !

وقال الحسن : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم ! أى أن العلماء يخرجونهم بالتعليم من حد البهيمية إلى حد الإنسانية .

وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأُمَّة محمد من آبائهم وأُمهاتهم ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن آباءهم وأُمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا ، وهم يحفظونهم من نار الآخرة .

* *

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤) .

(٢) متفق عليه عن سهل بن سعد .

(٣) قال الحافظ العراقى : رواه ابن عبد البر فى العلم ، والهروى فى ذم الكلام من حديث الحسن . فقيل : هو ابن علىّ ، وقيل : ابن يسار فيكون مرسلاً . ولابن السنى وأبى نعيم فى « رياضة المتعلمين » من حديث على نحوه .

● وجوب البيان وتحريم الكتمان :

وكما يحرم على الإنسان أن يقول ما لا يعلم فى دين الله ، فإنه يحرم عليه أن يكتم ما يعلم ، مما ينفع الله به الناس من البيِّنات والهدى ، فإن زكاة العلم - كما ذكرنا - نشره وبثه ، لا كنزه وحبسه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

والآيتان نزلتا فى شأن أهل الكتاب من أحبار اليهود ورهبان النصارى ، الذين كتموا صفات النبى ﷺ فى كتبهم ، بالحذف أو الإخفاء ، أو التحريف . ولكن اللَّفظ عام يشمل كل مَن كتم من دين الله علماً يُحتاج إلى بثه .

فلا يجوز للعالِم بحال أن يقصد إلى كتمان العلم النافع ، ومَن قصد ذلك فهو عاصٍ آثم ، وإذا لم يقصد إلى الكتمان وكان فى الناس مَن يقوم بواجب البيان والتبليغ والدعوة ، فقد رُفع عنه الإثم ، فإن البيان فرض كفاية إذ قام به البعض سقط الحَرَج عن الباقين ، وهذا إذا كان عدد المبلِّغين والدعاة من الكفاية بحيث تكون منهم « أُمَّة » أى جماعة وقوة ، كما أمر الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

ويتعين البيان على العالِم إذا سأله سائل يسترشد عن أمر من أُمور دينه ، ولا يحل له الكتمان هنا ، اتكالاً على غيره ، حتى لا يضيع المسلم بين هذا وذاك .

---

(١) البقرة : ١٥٩- ١٦٠ (٢) آل عمران : ١٠٤

روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « مَنْ سُئِل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار » (١) .

ذلك أن من حق السائل المتعلم على العالِم أن يجيبه ويعلِّمه ، ما لم يكن متعنتاً ولا متنطعاً ، يتتبع الغرائب وأُغلوطات المسائل ، فقد ورد النهى عن هذه الأغلوطات ، وأدَّب عمر سائلاً عُرِف بذلك .

كما يحرم على العالِم المسلم السكوت عن البيان العلمى باللِّسان أو القلم إذا ترتب على سكوته التباس الحق بالباطل ، واشتباه الحلال بالحرام ، واختلاط المعروف بالمنكر ، فيلزمه هنا البيان ، إزالة للَّبْس ، وإيضاحاً للحق ، فإن البيان هنا من باب الشهادة التى يحرم كتمانها : ﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ ، وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّه آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ (٢) .

وقد ضرب القرآن لنا مثلاً بعلماء السوء من اليهود والنصارى الذين كتموا ما أنزل الله ، ابتغاء عَرَض الدنيا فلعنهم الله ، ليكون ذلك لنا عبرة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِه ثَمَناً قَلِيلاً ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (٣) ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِه ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ، فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ (٤) .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وحسَّنه ، وابن ماجه وابن حبان فى صحيحيهما ، والبيهقى ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين .

(٢) البقرة : ٢٨٣ (٣) آل عمران : ١٨٧

(٤) البقرة : ١٧٤ - ١٧٥

وإن فى هذا الوعيد الشديد لتذكرة لمن يلبسون لباس العلماء ، من الذين يجارون الملوك الفاسقين والرؤساء الظالمين ، ويكتمون الحق وهم يعلمون ، فكيف بالذين يحلُّون لهم الحرام ، ويسقطون عنهم الفرائض ، ويمدونهم بالفتاوى الجاهزة لكل بدعة يبتدعون ، وكل منكر يقترفون ؟

* *

● **الوقوف عند ما يعلم :**

ومن حقوق العلم على العالِم : أن يقف عند حدود علمه ، ولا يتطاول إلى ما ليس من شأنه ، ولا فى طاقته . كالعلم بكُنْه الذات الإلهية ، فإن الإنسان قد عجز عن معرفة كُنْه نفسه ، فكيف يطمع فى معرفة كُنْه ربه عَزَّ وجَلَّ ؟ وقد قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ (١) .

وكذلك معرفة الغيب المطلق الذى استأثر الله بعلمه : ﴿ قُل لا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلا اللهُ ﴾ (٢) .

ومن ذلك : علم الساعة الذى لم يطلع الله عليه مَلَكاً مقرَّباً ولا نبياً مرسلاً ، وقال النبى ﷺ لجبريل حين سأله عنها : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » ، وقال تعالى : ﴿ يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ ﴾ (٣) .

وأولى بالإنسان أن يدخر طاقته العقلية ليبذلها فيما يستطيعه ، وفيما يعود عليه بالخير فى دينه ودنياه .

ـ ب على العالِم المسلم إذا سئل عما لا يعلم ، أن يقول : لا أعلم .

---

(١) طه : ١١٠ (٢) النمل : ٦٥ (٣) الأحزاب : ٦٣

فليس فى العلم كبير ، وفوق كل ذى علم عليم . وليس هناك مَن أحاط بكل شىء علماً غير الله سبحانه ، وكل بَشَر يعلم شيئاً وتغيب عنه أشياء . وقد سُئِل النبى ﷺ عن أشياء ، فلم يجب عنها حتى نزل عليه الوحى .

وقال ابن مسعود : إن الذى يفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمجنون !

وقال غيره : مَن قال : « لا أدرى » فقد أجاب . ومَن أخطأ قول : « لا أدرى » أصيبت مقاتله !

وكم سُئِل من كبار الأئمة - مثل الإمام مالك - فلم يستنكف أن يقول : لا أدرى .

وكان الصحابة إذا استفتوا أحال كل منهم السائل على صاحبه ، خشية من تبعة الفتوى .

وكان ابن عمر يتهيب الفتوى ، ويقول لمن سأله : اذهب إلى الأمير فاسأله . ويقول لصاحبه : أتدرى ماذا يريد هؤلاء ؟ يريدون أن يتخذوا ظهورنا جسوراً إلى جهنم !

وبكى بعض علماء السَّلَف ، فسئل فى ذلك ، فقال : استُفتى اليوم مَن لا علم عنده !

فكيف لو شاهد عصرنا ، ورأى مَن يستفتون ، ومَن يفتون ؟!

ولقد ابتلينا فى عصرنا ببعض المجترئين الذين استباحوا حمى الشريعة ، وأمسوا يحلِّلون ويحرِّمون ، ويوجبون ويسقطون ، ويُبدِّعون ويُفَسِّقون ، بل يُكَفِّرُون ، لمجرد أنهم قرؤوا بعض الكتب لبعض العلماء وفى بعض العلوم ، ولم يعيشوا فى جو العلم ، ولا طلبوه من شيوخه ، ولم يتقنوا أدواته ، ولم يملكوا مفاتيحه ، ومع هذا أفتوا فى أعوص المسائل ، وحكموا فى أغمض القضايا ، واعترضوا على أكابر العلماء ، وطعنوا فى أئمة المذاهب ، وساووا رؤوسهم برؤوس الصحابة والتابعين ، وقال قائلهم : هم رجال ونحن رجال !

وهذا هو الذى يؤذن بضياع الدين ، وخراب الدنيا ، كما فى الحديث المتفق عليه : « إنَّ الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعاً من صدور الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً ، فسُئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا » (١) .

وأشد الأمور خطراً : أن يفتى المرء فيما لا يعلمه ويستيقنه من دين الله ، فَيُحرِّم أو يُحلِّل بغير بينة وبرهان من ربه ، وهنا يكون الإثم على المفتى إذا كان المستفتى مخدوعاً فيه ، وإن كان عليه أن يتحرَّى ويبحث عمن يستفتيه فى دينه ، ويعلم منه شرع ربه .

روى أبو هريرة عن النبى ﷺ : « مَن أُفتى بغير علم كان إثمه على مَن أفتاه ، ومَن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره ، فقد خانه » (٢) .

وفى عهد النبوة أصاب رجلاً مسلماً جراحة ، ثم أصابته جنابة ، فأفتاه بعض الناس بضرورة أن يغتسل ، فعمل بفتواهم ، فتفاقم جرحه ، فمات منه . فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فقال منكراً عليهم : « قتلوه ، قتلهم الله ! هلا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العى السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه » (٣) .

فأخبر النبى ﷺ أنهم قتلوه ، ودعا عليهم بقوله : « قتلهم الله » ! فدلنا هذا على أن من الفتاوى ما يقتل ، وليس كل القتل قتلاً مادياً ، لعل القتل المعنوى أشد خطراً من المادى ، وأخطر منه قتل الجماعة ، وإزهاق روحها بالفتاوى الجاهلة .

* * *

---

(١) متفق عليه عبد الله بن عمرو .

(٢) رواه أبو داود والحاكم عن أبى هريرة وحسَّنه فى صحيح الجامع الصغير (٦٠٦٨) ، وفى ابن ماجه والحاكم : « مَن أفتى بفتيا غير ثبت فإنما على من أفتاه » - المرجع نفسه (٦٩٦٩) .

(٣) رواه أبو داود ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٤٣٦٢) .

الفصل الخامس

الصوفية .. والعلم

بدأ الإمام الغزالى موسوعته « إحياء علوم الدين » - التى تضمنت أربعين كتاباً ، شملت العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات من الآخلاق - بكتاب « العلم » ، الذى أفاض فيه ، وفصل القول ، فى بيان أقسامه ، والمحمود منه والمذموم ، وبيان فرض الكفاية من فرض العَيْن منه ، كما ظهر لنا فيما سبق .

كما جعل أول « عقبة » يجب على سالك الطريق أن يجتازها هى : « عقبة العلم » ، وذلك فى كتابه « منهاج العابدين » الذى صنَّفه قبل موته بقليل ، ليرسم فيه معالم الطريق إلى الله بإيجاز .

وكأن الغزالى بهذا الصنيع يرد على المنحرفين من المتصوِّفة الذين استخفّوا بقيمة العلم ، وزعموا أنه « حجاب » بين العبد وربه ، وأُثرت عنهم فى ذلك عبارات تمجها الأسماع ، وتنفر منها الطباع ، لا يقبلها دليل الشرع ، ولا برهان العقل .

ولم يكتف الغزالى - رحمه الله - بهذا ، بل نجده كثيراً فى شرحه للأخلاق الربَّانية والمقامات الإيمانية ، يبين أهمية العلم لتحقيقها والمحافظة عليها ، فالعلم أحد المكونات أو العناصر الأساسية الثلاثة ، التى يعبر عنها بأنها : علم ، وحال ، وعمل .

فالعلم يمثل الجانب المعرفى والإدراكى ، وهو المقدمة والأساس ، والحال يمثل الجانب الوجدانى والانفعالى ، والعمل يمثل الجانب الإرادى والسلوكى .

وإلى هذا الترتيب يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) .

---

(١) الحج : ٥٤

وقد ذكرنا فيما سبق تأثير العلم فى السلوك وأنه من ثمراته - إذا رسخ وتمكن - اليقين والمحبة لله ، وأنه الذى يعرف السالكين إلى الله حقيقة الإخلاص ، وآفة الرياء .

* *

● **بين العلم والمعرفة :**

بَيْد أن الغلاة من الصوفية يزدرون العلم الشرعى ، فى مقابل الكشف أو الذَوْق الصوفى .

« وهم يسمون صاحب العلم الشرعى « عالماً » ، ويسمون صاحب الكشف الصوفى « عارفاً » ، فـ « العلم » عندهم كسبى استدلالى ، و« المعرفة » وهبية ضرورية - وهى العلم اللدُنِّى - والعلم له الخبر ، والمعرفة لها العيان .

ومثال هذا : أنك إذا رأيت فى حومة ثلج ثقباً خالياً ، استدللتَ به على أن تحته حيواناً يتنفس ، فهذا علم . فإذا حفرته وشاهدتَ الحيوان ، فهذه معرفة .

ولا مشاحة فى الاصطلاح ، فلكل طائفة أن تصطلح على ما تتفاهم به ، بشرط أن تتضح المدلولات ، وتتحدد المفاهيم ، ولكن الخطر هنا هو تحقير « العالِم » وتقديس « العارِف » ، أو اعتبار ما يجئ من طريق المعرفة معصوماً ، وما يجئ من طريق العلم مظنوناً أو مشكوكاً فيه أو منقوصاً ، وإن كان مستمَداً من الكتاب والسُّنَّة .

وذلك كقول بعض المنحرفين : « العالِم يُسعطك الخل والخردل ، والعارِف ينشقك المسك والعنبر » !

قال : ومعنى هذا : أنك مع العالِم فى تعب ، ومع العارِف فى راحة ، العارف يبسط عذر العوالم والخلائق ، والعالِم يلوم . وقد قيل : مَن نظر إلى الخلق بعين « العلم » مقتهم ، ومَن نظر إليهم بعين « المعرفة » عذرهم !!

يقول الإمام ابن القيم معقباً على هذا الكلام الخطير :

« فانظر ما تضمنه هذا الكلام - الذى ملمسه ناعم ، وسمه زعاف قاتل - من

الانحلال عن الدين ، ودعوى الراحة من حكم العبودية ، والتماس الأعذار لليهود والنصارى وعُبَّاد الأوثان ، والظلَمة والفجَرة ، وأن أحكام الأمر والنهى - الواردين على ألسن الرسل - للقلوب بمنزلة سعط الخل والخردل ، وأن شهود الحقيقة الكونية الشاملة للخلائق ، والوقوف عليها ، والانقياد لحكمها ، بمنزلة تنشيق المسك والعنبر .

فليهن الكُفَّارَ والفُجَّارَ والفُسَّاقَ ، انتشاقُ هذا المسك والعنبر إذا شهدوا هذه الحقيقة وانقادوا لحكمها !

ويا رحمة للأبرار المحكمين لما جاء به الرسول ﷺ من كثرة سعوطهم بالخل والخردل !

فإن قوله - صلى الله عليه وسلم - هذا يجوز ، وهذا لا يجوز . . وهذا حلال وهذا حرام ، وهذا يُرضى الله ، وهذا يُسخطه : خل وخردل عند هؤلاء الملاحدة ، وإلا فالحقيقة تُشهدك الأمر بخلاف ذلك .

ولذلك إذا نظرت - عندهم - إلى الخلق بعين الحقيقة عذرت الجميع . فتعذر مَن توعَّده الله ورسوله أعظم الوعيد ، وتهدده أعظم التهديد .

ويا لله العجب ! إذا كانوا معذورين فى الحقيقة ، فكيف يُعذِّب الله سبحانه المعذور ، ويُذيقه أشد العذاب ؟

وهلَّا كان الغنى الرحيم أولى بعذره من هؤلاء » ؟ (١) .

* *

● التزام الصوفية الأوائل بالعلم الشرعى :

ولكن هؤلاء المنحرفين لا يمثلون التصوف كله ، ومن الظلم أن نأخذ الجميع بوزرهم ، إنما يمثله حقاً شيوخه الكبار الذين أنكروا على هؤلاء هذه الدعاوى العريضة ، التى زعموا فيها الاستغناء عن علم الكتاب والسُّنَّة .

---

(١) مدارج السالكين : ٣/ ١٦٧

ويحسن بنا أن نذكر هنا بعض ما نقله ابن القيم فى « مدارج السالكين » عن المعتدلين من أكابر القوم ، وأئمة السلوك ، وهو ما نقله القشيرى فى « رسالته » أيضاً :

« قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على مَن اقتفى آثار الرسول ﷺ .

وقال : مَن لم يحفظ القرآن ، ويكتب الحديث ، لا يُقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا مُقيَّد بالكتاب والسُّنَّة .

وقال : مذهبنا هذا مُقيَّد بأُصول الكتاب والسُّنَّة .

وقال أبو حفص - رحمه الله - : مَن لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسُّنَّة ، ولم يتهم خواطره ، فلا يُعد فى ديوان الرجال .

وقال أبو سليمان الدارانى - رحمه الله - : ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياماً ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب ، والسُّنَّة .

وقال أبو زيد : عملتُ فى المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدتُ شيئاً أشد علىّ من العلم ومتابعته . .

وقال مرة لخادمه : قم بنا إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالصلاح لنزوره ، فلما دخلا عليه المسجد تنخع ، ثم رمى بها نحو القِبْلة ، فرجع فلم يُسلِّم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأموناً على ما يدَّعيه ؟

وقال : لقد هممتُ أن أسأل الله تعالى أن يكفينى مؤنة النساء ، ثم قلت : كيف يجوز لى أن أسأل الله هذا ، ولم يسأله رسول الله ﷺ ؟ ولم أسأله ، ثم إن الله كفانى مؤنة النساء ، حتى لا أبالى استقبلتنى امرأة أو حائط .

وقال : لو نظرتم إلى رجل أُعطى من الكرامات إلى أن يرتفع فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وآداب الشريعة !

وقال أحمد بن أبى الحوارى - رحمه الله - : مَن عمل عملاً بلا اتباع سُنَّة ، فباطل عمله » (١) .

قال ابن القيم : « وأما الكلمات التى تُروى عن بعضهم : من التزهيد فى العلم ، والاستغناء عنه ، كقول مَن قال : « نحن نأخذ علمنا من الحى الذى لا يموت ، وأنتم تأخذونه من حى يموت » !

وقول الآخر - وقد قيل له : ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزَّاق ؟ فقال : ما يصنع بالسماع من عبد الرزَّاق ، مَن يسمع من الخلاق ؟!

وقول الآخر : العلم حجاب بين القلب وبين الله عَزَّ وجَلَّ !

وقول الآخر : إذا رأيت الصوفى يشتغل بـ « أخبرنا » و« حدَّثنا » فاغسل يدك منه !

وقول الآخر : لنا علم الحُرَق (جمع حُرقة) ، ولكم علم الورق .

ونحو هذا من الكلمات التى أحسن أحوال قائلها : أن يكون جاهلاً يُعذر بجهله ، أو شاطحاً معترَفاً بشطحه ، وإلا فلولا عبد الرزَّاق وأمثاله ، ولولا « أخبرنا » و« حدَّثنا » لما وصل إلى هذا وأمثاله شىء من الإسلام .

ومَن أحالك على غير « أخبرنا » و« حدَّثنا » فقد أحالك : إما على خيال صفوفى ، أو قياس فلسفى ، أو رأى نفسى ! فليس بعد القرآن و« أخبرنا » و« حدَّثنا » إلا شبهات المتكلمين ، وآراء المنحرفين ، وخيالات المتصوِّفين ، وقياس المتفلسفين ، ومَن فارق الدليل ، ضلَّ عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنَّة ، سوى الكتاب والسُّنَّة . وكل طرق لم يصحبها دليل القرآن والسُّنَّة فهى من طرق الجحيم ، والشيطان الرجيم » (٢) .

* *

---

(١) مدارج السالكين : ٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥ (٢) مدارج السالكين : ٢/ ٤٦٨

● حقيقة العلم اللدُنِّى :

أما « العلم اللدُنِّى » الذى طنطن به بعضهم ، وأبدأ فيه وأعاد ، وزعم الاستغناء به عن العلم الكسبى ، الذى يتصل بالأدلة والشواهد ، فقد قال فيه ابن القيم فى شرح ما جاء فى كلام الهروى عنه فى « منازل السائرين » :

« العلم اللدُنِّى هو : العلم الذى يقذفه الله فى القلب بلا سبب من العبد ، ولا استدلال ، ولهذا سمى لَدُنِّياً . قال تعالى : ﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) ، ولكن هذا العلم أخص من غيره ، ولذلك أضافه إليه سبحانه ، كبيته وناقته وبلده وعبده ، ونحو ذلك . فتضمحل العلوم المستندة إلى الأدلة والشواهد فى العلم اللدُنِّى ، الحاصل بلا سبب ولا استدلال ، هذا مضمون كلامه » (يعنى الهروى صاحب « المنازل ») .

قال ابن القيم : « ونحن نقول : إن العلم الحاصل بالشواهد والأدلة ، هو العلم الحقيقى ، وأما ما يُدَّعى حصوله بغير شاهد ولا دليل ، فلا وثوق به (وليس بعلم) . نعم قد يقوى العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد ، بحيث يصير المعلوم كالمشهود ، والغائب كالمعايَن ، وعلم اليقين كعَيْن اليقين ، فيكون الأمر شعوراً أولاً ، ثم تجويزاً ، ثم ظناً ، ثم علماً ، ثم معرفة ، ثم علم يقين ، ثم حق يقين ، ثم عَيْن يقين ، ثم تضمحل كل مرتبة فى التى فوقها ، بحيث يصير الحكم لها دونها ، فهذا حق .

« وأما دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال ، فليس بصحيح ، فإن الله سبحانه ربط التعريفات بأسبابها ، كما ربط الكائنات بأسبابها ، ولا يحصل لبَشر علم إلا بدليل يدله عليه ، وقد أيَّد الله سبحانه رسله بأنواع الأدلة والبراهين التى دلَّتهم على أن ما جاءوا به هو من عند الله ، ودلَّت أُممهم على ذلك . وكان معهم أعظم الأدلة والبراهين على أن ما جاءهم هو من عند الله ، وكانت براهينهم أدلة وشواهد لهم وللأُمم . فالأدلة والشواهد التى كانت لهم ، ومعهم : أعظم الشواهد والأدلة ، والله تعالى شهد

---

(١) العلق : ٥

بتصديقهم بما أقام عليه من الشواهد ، فكل علم لا يستند إلى دليل فدعوى لا دليل عليها ، وحكم لا برهان عند قائله . وما كان كذلك لم يكن علماً ، فضلاً عن أن يكون لَدُنِّياً .

« فالعلم اللدُنِّى : ما قام الدليل الصحيح عليه ، أنه جاء من عند الله على لسان رسله ، وما عداه فلدُنِّى من لَدُن نفس الإنسان ، منه بدأ وإليه يعود .

« وقد انبثق سدّ العلم اللدُنِّى ، ورخص سعره ، حتى ادَّعت كل طائفة أن علمهم لدُنِّى . وصار مَنْ تكلم فى حقائق الإيمان والسلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له ، ويلقيه شيطانه فى قلبه ، يزعم أنَّ علمه لدُنِّى !! فملاحدة الاتحادية ، وزنادقة المنتمين إلى السلوك يقولون : إن علمهم لدُنِّى ! وقد صنَّف فى العلم اللدُنِّى متهوكو المتكلمين ، وزنادقة المتصوِّفين ، وجهلة المتفلسفين ، وكلٌ يزعم أن علمه لدُنِّى ! وصدقوا وكذبوا ، فإن « اللدُنِّى » منسوب إلى « لَدُن » بمعنى « عند » ، فكأنهم قالوا : العلم العندى ، ولكن الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لَدُنه ، وقد ذمَّ الله تعالى بأبلغ الذم مَن ينسب إليه ما ليس من عنده كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ (٣) ، فكل مَن قال : هذا العلم من عند الله - وهو كاذب فى هذه النسبة - فله نصيب وافر من هذا الذم . وهذا فى القرآن كثير ، يذم الله سبحانه مَن أضاف إليه ما لا علم به ، ومَن قال عليه ما لا يعلم . ولهذا رتَّب سبحانه المحرَّمات أربع مراتب ، وجعل أشدها

---

(١) آل عمران : ٧٨ (٢) البقرة : ٧٩ (٣) الأنعام : ٩٣

القول عليه بلا علم ، فجعله آخر مراتب المحرَّمات التى لا تُباح بحال [1] ، بل هى محرَّمة فى كل ملَّة ، وعلى لسان كل رسول ، فالقائل : إن هذا « علم لَدُنِّى » لما لا يعلم به من عند الله ، ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده : كاذب مفترٍ على الله ، وهو من أظلم الظالمين ، وأكذب الكاذبين » [2] .

على أن كثيراً من الصوفية المتأخرين رفضوا حجية الإلهام .

قال العلامة الألوسى فى تفسيره عند قصة الخضر من سورة الكهف :

« وممن صرَّح بأن الإلهام ليس بحُجَّة من الصوفية : الإمام الشعرانى ، وقال : قد زلَّ فى هذا الباب خلق كثير فضلُّوا وأضلُّوا ، ولنا فى ذلك مؤلَّف سميته « حد الحسام فى عنق مَن أطلق إيجاب العمل بالإلهام » وهو مجلد لطيف » [3] .

فمن احتج بالإلهام وحده على حكم شرعى فاحتجاجه مردود عليه [4] .

* *

● موقفنا من قضية الكشف والإلهام :

وموقفنا من قضية الكشف والإلهام ، هو موقف العلماء الربَّانيين من دعاة « الوَسَطية الإسلامية » وهم الذين جمعوا بين النورين : نور العقل ونور القلب ، نور العلم ونور الإيمان ، نور الفطرة ونور النبوة ، واهتدوا بصحيح المنقول وصريح المعقول ، ووفَّقوا بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية ، وردوا الفروع إلى الأُصول ، والمتشابهات إلى المحكمات ، والظنيات

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٣) .

(٢) مدارج السالكين : ٣/ ٤٣١ - ٤٣٣ (٣) روح المعانى للألوسى : ١٦/ ١٧

(٤) انظر : كتابنا « موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى » ص ٧٤ وما بعدها - نشر مكتبة وهبة بالقاهرة .

إلى القطعيات ، فأثبتوا الإلهام والكشف والتحديث والفراسة والرؤى الصادقة بشروطها وفى حدودها ، وأقاموا الوزن بالقسط ولم يُخسروا الميزان ، ولم يطغوا فيه ، وبهذا أووا من العلم إلى ركن شديد ، واعتصموا من الدين بحبل متين : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

وقد شرحنا هذا الموقف فى بعض كتبنا (٢) مفصّلاً ، ولا بأس أن نلخصه هنا :

إن موقف أهل التوسط والاعتدال من محققى علماء السُّنَّة ، هو الذى يُعبِّر بحق عن وَسَطية المنهج الإسلامى ، ووَسَطية الأُمَّة الإسلامية .

فهم لا يغلقون باباً من أبواب المعرفة والوعى ، فتحه الله لبعض الناس ، فى بعض الأوقات ، بجوار البابين الآخرين ، من أبواب المعرفة ، وهما اللَّذان لهما صفة العموم والدوام .

أعنى : باب الحواس ، وخصوصاً السمع والبصر ، وباب العقل ، وقد يُعبَّر عنه فى القرآن الكريم بالفؤاد أو القلب ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٣) ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) ، فجعل هذه الثلاثة منافذ المعرفة للإنسان : السمع والأبصار للمعرفة الحسية ، والأفئدة للمعرفة العقلية .

والمعرفة « السمعية » تدخل فيها العلوم النقلية ، ومنها : علوم الدين ، فهى علوم سمعية ، وإن نقلت عن طريق القلم والكتاب .

والمعرفة « البصرية » تدخل فيها العلوم التجريبية ، لأنها تقوم على الملاحظة والتجربة والقياس ، وأساسها البصر والمشاهدة .

---

(١) آل عمران : ١٠١ (٢) كتابنا « موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى » .

(٣) الإسراء : ٣٦ (٤) النحل : ٧٨

والمعرفة « الفؤادية » أو « القلبية » يدخل فيها المعرفة العقلية الخالصة ، عن طريق النظر والتفكير والاعتبار والاستدلال ، كما يمكن أن يدخل فيها المعرفة المباشرة عن طريق البصيرة والحدس والإلهام ، وهو ما يسمونه « المعرفة الروحية » .

ذلك أن كلمة « الفؤاد » أو « القلب » ليست مرادفة لكلمة « العقل » ، بل هى أعم وأشمل ، فقد يراد منها تلك اللطيفة المدركة العاقلة المفكرة ، ولذا توصف أحياناً بالعقل أو الفقه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ (١) .

وقوله فى أهل النار : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (٢) .

وقد يُراد من كلمة الفؤاد أو القلب ما يُطلق عليه الآن اسم « الروح » أو « الضمير » أو « البصيرة » ، أو نحو ذلك من الكلمات التى تُعبِّر عن نوع من الوعى المباشر دون الأدوات التى يستخدمها العقل المنطقى فى تحصيل معرفته .

ومهما يكن من تفسيرنا لكلمة « الأفئدة » أو « القلوب » فإن مما لا ريب فيه أن فيها نوراً فطرياً أودعه الله فيها ، يزداد بالإيمان والمجاهدة والتقوى ، فيكون كما قال الله تعالى : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (٣) .

كما أن الكفر والجحود والغفلة واتباع الهوى ، يعطل هذه الأجهزة المعرفية لدى الإنسان ، ويخرب صلاحيتها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) الحج : ٤٦
(٢) الأعراف : ١٧٩
(٣) النور : ٣٥
(٤) الأعراف : ١٧٩

وقال عن بعض الكفار الذي نزل بهم عقاب الله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

لم يقل العلماء المعتدلون الذين اهتدوا بالكتاب والسُّنَّة بسد باب الإلهام والكشف ونور البصيرة ، وإنما أرادوا أن يُقيِّدوه بالأُصول والضوابط التى تمنع دخول الوهم والكذب والغلو فيه .

وإذا كان العقليون من قديم حاولوا أن يضبطوا إنتاج العقل بقواعد « المنطق » الذى عرَّفوه بأنه « آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى الفكر » ، وبهذا يمكن الرجوع إلى هذه القواعد عند الخلاف (وإن كان للإسلاميين ملاحظات ومآخذ على هذا العلم مذكورة فى مواضعها) .

وإذا كان الشرعيون قد وفَّقهم الله لوضع علم « أُصول الفقه » لضبط الاستدلال فيما فيه نص ، وفيما لا نص فيه ، وأسسوا بذلك علماً عظيماً لم يُعرف مثله فى حضارة من الحضارات ، وغدا مفخرة من مفاخر التراث الفكرى الإسلامى .

إذا كان الأمر كذلك ، فكيف يُترك الأمر فوضى فى موضوع الكشف والإلهام ، وندع الباب مفتوحاً على مصراعيه ، لكل مَن هبَّ ودبَّ ، ممن تخيَّل فخال ، أو مَن لا يميز بين إلهام المَلَك ونفث الشيطان ، أو مَن ادَّعى الوصول ولم يرع الأُصول ، من كل دجَّال يشترى الدنيا بالدين ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ؟!

---

(١) الأحقاف : ٢٦ (٢) الجاثية : ٢٣

هذا ما يراه الربَّانيون من علماء السُّنَّة ، فهم لا ينكرون أن يقذف الله فى قلب عبد من عباده نوراً يكشف له بعض المستورات والحقائق ، ويهديه إلى الصواب فى بعض المواقف والمضايق ، بدون اكتساب ولا استدلال ، بل هبة من الله تعالى ، وإلهاماً منه .

ومَن آمن بقدرة الله تعالى على كل شىء ، وآمن بالطاقة الروحية الهائلة فى الإنسان ، وآمن بأثر الإيمان والعبادة والمجاهدة فى تفجير هذه الطاقة الكامنة ، لم يستبعد أن يقع الكشف والإلهام من الله لبعض عباده المؤمنين الصادقين ، فى بعض الأحوال والأوقات ، تفضلاً منه وكرماً : ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) .

* *

• أثر التقوى والمجاهدة فى الهداية والإلهام :

ولا نزاع فى أن الإيمان والعبادة والتقوى ، ومجاهدة النفس ، لها أثرها فى تنوير العقل ، وهداية القلب ، والتوفيق إلى إصابة الحق فى الأقوال ، والسداد فى الأعمال ، والخروج من مضايق الاشتباه إلى باحات الوضوح ، ومن اضطراب الشك إلى ثبات اليقين .

ولا نزاع كذلك فى أن يكشف الله لبعض المتقين من عباده من حقائق العلم ، وأنوار المعرفة ، فى فهم كتابه أو سُنَّة نبيه ، بمحض الفيض الإلهى والفتح الربانى - ما يلهث كثيرون ليحصلوا عليه بالمذاكرة والتحصيل ، فلا يظفرون بما يدانيه ، بشرط أن يحصلوا الأدوات الضرورية لفهم العلم .

ولا نزاع كذلك فى أن يُوهَب بعض الناس من صدق الفراسة وقوتها ما يستطيع به أن يكتشف شخصية المرء يلقاه بنظرة إليه ، أو كلمة يسمعها منه ، أو يقرأ أفكاره ، أو يعرف بعض ما يجول بنفسه .

---

(١) آل عمران : ٧٣ - ٧٤

وهى موهبة فطرية لدى بعض الناس تقويها الرياضة والمجاهدة ، وتنميها تقوى الله تعالى ، ويصقلها الإيمان واليقين بالله تعالى وبالدار الآخرة ، حتى إن المؤمن لتصدق فراسته ، كأنما ينظر بنور الله ، وينطق بلسان القَدَر ، ويبصر الغيب من وراء ستر رقيق .

ولابن القيم هنا كلام جيد فى « مدارج السالكين » ينبغى أن يُقرأ ويُراجَع [1] .

* *

● ابن تيمية لا ينكر مطلق الإلهام الناشئ عن الإيمان والتقوى :

ومن الناس مَن يظن أن شيخ الإسلام ابن تيمية يجحد كل أثر للإيمان والتقوى والمجاهدة الروحية فى نفس الإنسان المسلم ، فلا تفيده نوراً يبصر به فى الظلمات ، ولا فرقاناً يميز به بين المتشابهات ، ولا هداية تنحل بها العقد والمشكلات ، وأن شأن المؤمن العابد التقى المحاسب لنفسه ، المراقب لربه ، المخلص فى عمله ونيته ، كشأن العاصى المسرف على نفسه ، أو الغافل عن ذكر ربه ، الناسى لأمر آخرته ، إذا استويا فى الذكاء والتحصيل !

وربما يؤيد هذا الظن ما قد يلحظه بعضهم من جمود وتزمت فى فريق من الحرفيين الذين ينسبون أنفسهم أو ينسبهم الناس إلى مدرسة ابن تيمية السَّلَفية .

وكثيراً ما ظُلِم شيخ الإسلام وأصحابه ، ونُسِب إليهم من الأفكار والمفاهيم والاتجاهات ما لم يقولوا به ، وما يُكذِّبه تراثهم وسيرتهم العلمية والعملية ، وما ظُلِموا إلا بسبب هؤلاء المحجوبين المطموسين اليابسين ، من زوامل النقل ، وأُسارى الرسم والشكل ، الذين شُغِلوا بالظاهر عن الباطن ، وبالصور عن الحقائق . الذين حُرِموا عمق الحاسة الروحية ، ولم يوجهوا عنايتهم لأعمال

---

(١) مدارج السالكين : ١/ ١٢٩ - ١٣١

القلوب ، ومقامات الإيمان والإحسان ، وتزكية الأنفس ، ومجاهدتها فى الله ، حتى يهديها سُبُله ، ويذيقها حلاوة الإيمان .

وليس أدل على منهج ابن تيمية وموقفه فى هذه القضية من نقل كلامه نفسه بنصّه رضى الله عنه .

يقول فيما نُقِل فى مجموع فتاواه ورسائله :

« القلب المعمور بالتقوى إذا رجَّح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعى ! قال : فمتى ما وقع عنده وحصل فى قلبه ما يظن معه أن هذا الأمر أو هذا الكلام أرضى لله ورسوله ، كان هذا ترجيحاً بدليل شرعى ، والذين أنكروا كون الإلهام ليس طريقاً إلى الحقائق مطلقاً أخطأوا ، فإذا اجتهد العبد فى طاعة الله وتقواه كان ترجيحه لما رجَّح أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والموهومة ، والظواهر والاستصحابات الكثيرة ، التى يحتج بها كثير من الخائضين فى المذاهب والخلاف وأُصول الفقه .

وقد قال عمر بن الخطاب : اقربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ؛ فإنهم تنجلى لهم أُمور صادقة .

وقال أبو سليمان الدارانى : إن القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت فى الملكوت ، ورجعت إلى أصحابها بطُرف الفوائد ، من غير أن يؤدى إليها عالِم علماً .

وقد قال النبى ﷺ : « الصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء » (١) .

ومَن معه نور وبرهان وضياء كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها ؟ ولا سيما الأحاديث النبوية ، فإنه يعرف ذلك معرفة تامة ؛ لأنه

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم عن أبى مالك الأشعرى ، وهو من أحاديث الأربعين النووية .

قاصد العمل بها ؛ فتتساعد فى حقه هذه الأشياء مع الامتثال ومحبة الله ورسوله ، حتى إن المحب يعرف من فحوى كلام محبوبه مراده منه تلويحاً لا تصريحاً :

والعين تعرف من عينى محدِّثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها

إنارة العقل مكسوف بطوع هـوىً ... وعقل عاصى الهوى يزداد تنويرا

وفى الحديث الصحيح : « لا يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أُحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » (١) .

ومَن كان توفيق الله له كذلك فكيف لا يكون ذا بصيرة نافذة ونفس فعَّالة ؟ وإذا كان الإثم والبر فى صدور الخلق له تردد وجولان ، فكيف حال مَن الله سمعه وبصره وهو فى قلبه ؟ وقد قال ابن مسعود : الإثم حوازّ القلوب . وقد قدَّمنا أن الكذب ريبة والصدق طمأنينة ، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس ، ويطمئن إليه القلب .

وأيضاً فإن الله فطر عباده على الحق ، فإذا لم تستَحل الفطرة ، شاهدت الأشياء على ما هى عليه ، فأنكرت منكرها ، وعرفت معروفها . قال عمر : الحق أبلج ، لا يخفى على فطن .

فإذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة منوَّرة بنور القرآن ، تجلَّت لها الأشياء على ما هى عليه فى تلك المزايا ، وانتفت عنها ظلمات الجهالات ، فرأت الأمور عياناً مع غيبها عن غيرها .

وإذا كان القلب معموراً بالتقوى انجلت له الأُمور وانكشفت ، بخلاف القلب الخراب المظلم ، قال حذيفة بن اليمان : إن فى قلب المؤمن سراجاً

---

(١) هو فى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة .

يزهر ، وفى الحديث الصحيح : « إن الدجَّال مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن ، قارئ وغير قارئ » [1] ، فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره ، ولا سيما فى الفتن .

وكلما قوى الإيمان فى القلب قوى انكشاف الأُمور له ، وعرف حقائقها من بواطلها ، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف ، وذلك مثل السراج القوى والسراج الضعيف فى البيت المظلم ، ولهذا قال بعض السَّلَف فى قوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ [2] . . قال : هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع فيها بالأثر ، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور . فالإيمان الذى فى قلب المؤمن يطابق نور القرآن ، فالإلهام القلبى تارة يكون من جنس القول والعلم ، والظن أن هذا القول كذب ، وأن هذا العمل باطل ، وهذا أرجح من هذا ، أو هذا أصوب .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : « قد كان فى الأُمم قبلكم مُحدَّثون ، فإن يكن فى أُمَّتى منهم أحد فعمر » ، والمحدَّث : هو المُلهَم المُخاطَب فى سِرِّه ، وما قال عمر لشىء : إنى لأظنه كذا وكذا إلا كان كما ظن ، وكانوا يرون أن السكينة تنطق على قلبه ولسانه .

وأيضاً فإذا كانت الأُمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن لقوة إيمانه يقيناً وظناً ، فالأُمور الدينية كشفها له أيسر بطريق الأَوْلى ، فإنه إلى كشفها أحوج ، فالمؤمن تقع فى قلبه أدلة على الأشياء لا يمكنه التعبير عنها فى الغالب ، فإن كل أحد لا يمكنه إبانة المعانى القائمة بقلبه ، فإذا تكلم الكاذب بين يدى الصادق عَرَف كذبه من فحوى كلامه ، فتدخل عليه نخوة الحياء الإيمانى فتمنعه البيان ، ولكن هو فى نفسه قد أخذ حذره منه ، وربما لوَّح أو صرَّح به خوفاً من الله ، وشفقة على خلق الله ، ليحذروا من روايته أو العمل به .

---

(١) متفق عليه من حديث حذيفة وأبى مسعود معاً . (٢) النور : ٣٥

وكثير من أهل الإيمان والكشف يُلْقِى الله فى قلبه أن هذا الطعام حرام ، وأن هذا الرجل كافر ، أو فاسق ، أو ديوث ، أو لوطى ، أو خمَّار ، أو مغن ، أو كاذب ، من غير دليل ظاهر ، بل بما يُلقِى الله فى قلبه .

وكذلك بالعكس ، يُلقِى فى قلبه محبة لشخص ، وأنه من أولياء الله ، وأن هذا الرجل صالح ، وهذا الطعام حلال ، وهذا القول صدق ، فهذا وأمثاله لا يجوز أن يُستبعد فى حق أولياء الله المؤمنين المتقين .

وقصة الخضر مع موسى هى من هذا الباب ، وأن الخضر علم هذه الأحوال المعيَّنة بما أطلعه الله عليه ، وهذا باب واسع يطول بسطه ، قد نبهنا فيه على نكت شريفة تطلعك على ما وراءها » [1] اهـ .

وما قاله شيخ الإسلام هنا ، أكَّده وأيَّده تلميذه المحقق الإمام ابن القيم - رحمهما الله - فى عدد من كتبه ، وخصوصاً فى كتابه الشهير « مدارج السالكين » .

* *

● شرط الاعتبار بالكشف والإلهام والرؤيا :

كما لا نزاع فى الإلهام والكشف فى باب الكرامات والخوارق التى يُكرم الله بها بعض أوليائه المتقين ، فيُقرِّب لهم البعيد ، أو يُكثِّر على أيديهم القليل ، أو يكشف لهم بعض المستور من غيوب المستقبل ، أو مكنونات الصدور ، أو خفايا الأُمور ، أو يُذلِّل لهم بعض الصعاب ، بغير الطريق المعتاد ، إلى غير ذلك مما كثرت فيه الحكايات ، وتناقلته الروايات ، مما لا يخلو بعضه من صحة وثبوت ، وما لا يسلم بعضه أيضاً من مبالغة أو اختلاق .

ولكن المبدأ مُسلَّم به وبنتائجه بشرطه ، وهو ألا يخرم قاعدة دينية ثابتة ، ولا حكماً شرعياً متفقاً عليه .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٢/٤٢ - ٤٧

وهو ما بيَّنه وفصَّله بأدلته وأمثلته الإمام الشاطبى فى كتاب المقاصد من « الموافقات » ، فليُرجع إليه .

فقد بيَّن أن ما يخرم قاعدة شرعية ، أو حكماً شرعياً ليس بحق فى نفسه ، بل هو إما خيال ، أو وهم ، وإما من إلقاء الشيطان ، وقد يخالطه ما هو حق وقد لا يخالطه ، وجميع ذلك لا يصلح اعتباره ، من جهة معارضته لما هو ثابت مشروع ، فإن التشريع الذى جاء به رسول الله ﷺ عام لا خاص ، لا ينخرم أصله ، ولا ينكسر له اطراد ، ولا يُستثنى من الدخول تحت حكمه مُكلَّف .

وإذا كان كذلك فكل ما جاء من هذا القبيل الذى نحن بصدده مضاداً لما تمهد فى الشريعة ، فهو فاسد باطل .

قال الشاطبى : « ومن أمثلة ذلك مسألة سُئِل عنها ابن رشد فى حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة فى أمر ، فرأى الحاكم فى منامه أن النبى ﷺ قال له : « لا تحكم بهذه الشهادة فإنها باطل » ، فمثل هذا من الرؤيا لا معتبر بها فى أمر ولا نهى ، ولا بشارة ، ولا نذارة ، لأنها تخرم قاعدة من قواعد الشريعة ، وكذلك سائر ما يأتى من هذا النوع . وما روى : « أن أبا بكر رضى الله عنه أنفذ وصية رجل بعد موته برؤيا رؤيت » ، فهى قضية عَيْن لا تقدح فى القوعد الكلية لاحتمالها ، فلعل الورثة رضوا بذلك ، فلا يلزم منها خرم أصل .

« وعلى هذا لو حصلت له مكاشفة بأن هذا الماء المعيَّن مغصوب أو نجس ، أو أن هذا الشاهد كاذب ، أو أن المال لزيد وقد تحصَّل بالحُجَّة لعمرو ، أو ما أشبه ذلك ، فلا يصح له العمل على وفق ذلك ما لم يتعين سبب ظاهر ، فلا يجوز له الانتقال إلى التيمم ، ولا ترك قبول الشاهد ، ولا الشهادة [1]

---

(١) لعلها : ولا الحكم .

بالمال لزيد على حال . فإن الظواهر قد تعيَّن فيها بحكم الشريعة أمر آخر ، فلا يتركها اعتماداً على مجرد المكاشفة أو الفراسة ، كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النومية ، ولو جاز ذلك لجاز نقض الأحكام بها ، وإن ترتبت فى الظاهر موجباتها ، وهذا غير صحيح بحال . فكذا ما نحن فيه .

« وقد جاء فى الصحيح : « إنكم تختصمون إلىَّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعض ، فأحكم له على نحو ما أسمع منه » . . . . الحديث [1] ، فقيَّد الحكم بمقتضى ما يسمع وترك ما وراء ذلك . وقد كان كثير من الأحكام التى تجرى على يديه يطلع على أصلها وما فيها من حق وباطل ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يحكم إلا على وفق ما سمع ، لا على وفق ما علم ، وهو أصل فى منع الحاكم أن يحكم بعلمه » [2] .

وقد كان - صلى الله عليه وسلم - يعلم من دخائل المنافقين وبواطن كفرهم ما يعلم ، ولكنه لم يعاملهم وفقاً لما كشف الله له من بواطنهم ، بل عاملهم حسب ظواهرهم ، وأجرى عليهم أحكام الإسلام ، ومنحهم حقوق المسلمين فى الحياة وبعد الممات .

وبهذا ردَّ على مَن أراد من الصحابة أن يعاملهم معاملة الكفار المجاهرين ، فقال : « أخشى أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » !

وهكذا أُمِرنا أن نحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر ، ولم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس [3] .

* *

---

(١) بقيته : « فمن قضيتُ له بشىء من حق أخيه فلا يأخذنه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » (أخرجه الشيخان) .

(٢) الموافقات : ٢/ ٢٦٦ - ٢٦٨

(٣) انظر : كتابنا « موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى » ص ٢٥ - ٣٨ - نشر مكتبة وهبة - الطبعة الأولى .

● **قصة موسى والخضر :**

وخلافنا إنما هو مع الغلاة من الصوفية الذين اعتبروا كشفهم وإلهامهم مصدراً للأحكام الشرعية ، فيحلُّون على أساسه وحده ويحرِّمون !

ويأخذون من قصة موسى والخضر : أن العلم اللدُنِّى مقدَّم على العلم الشرعى ، وأن هناك « شريعة » يعلمها الفقهاء ، و« حقيقة » يعرفها الأولياء ، وأن الحقيقة مقدَّمة على الشريعة ، فالشريعة للعوام والحقيقة للخواص ، ويستدلون على هذه التفرقة بهذه القصة ، التى ذكرها الله فى سورة الكهف . فموسى - فى نظرهم - كان ينظر بعين الشريعة فأنكر خرق السفينة ، وقَتْل الغلام بغير جناية ، وإقامة الجدار لقوم لا يستحقون إكراماً ولا معونة .

وأما الخضر فكان ينظر بعين الحقيقة ، ولهذا بيَّن لموسى ما وراء كل أمر من هذه الأُمور الثلاثة من أسرار وغيوب ، فسلَّم موسى للخضر ؛ لأن موسى لم يكن معه إلا علم الظاهر ، علم الشريعة ، والخضر كان معه علم الباطن ، وهو علم الحقيقة !

والعلم الذى عند الخضر لم يأت نتيجة تعلم ولا اكتساب ، إنما هو علم وهبى من لَدُن الله مباشرة وبلا واسطة ، ويسمونه « العلم اللدُنِّى » أخذاً من قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ (١) .

ومن هنا جاء عن بعض المتصوِّفة احتقارهم لعلم الشرع ، الذى يُعرَف من النصوص ، ويُعلم بالشواهد والأدلة ، ويُطلب من العلماء ، ويُروَى بالأسانيد ، ويسمونه « علم الورق » .

وإنما يعنيهم علم « الباطن » أو « الحقيقة » أو « العلم اللدُنِّى » كما يسمونه ، علم الخضر لا علم موسى ، علم « أصحاب الأذواق » ، لا علم « أصحاب الأوراق » ، علم الصوفية لا علم المحدِّثين والفقهاء .

---

(١) الكهف : ٦٥

بل قال بعضهم فى جراءة عجيبة : إن العلم حجاب بين صاحبه وبين الله جلّ جلاله !!

ولا ريب أن هذا من الجهل والعُجْب ، والغرور ، والشرود عن سواء الصراط ، الذى سار عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الغر الميامين . والتابعون لهم بإحسان ، بل هو الذى سار عليه شيوخ الصوفية الأوائل أنفسهم ، ورَبَّوْا عليه مريديهم ، وشدَّدوا فى ذلك ، ولم يتهاونوا فيه .

وقد بيَّن الإمام الشاطبى فى « الموافقات » أن من خصائص الشريعة عمومها لكل المكلَّفين فى كل الأوضاع والأحوال .

فلا يخرج عنها وليّ ولا غيره بدعوى الكشف أو غيره ، وأن العوائد الجارية ضرورية الاعتبار شرعاً ، فليس الاطلاع على المغيبات ، ولا الكشف الصحيح بالذى يمنع جريانها على مقتضى الأحكام العادية . والقدوة فى ذلك رسول الله ﷺ ، ثم ما جرى عليه السَّلَف الصالح رضى الله عنهم .

ثم تعرَّض لقصة « الخضر » التى يحتج بها قوم على جواز الخروج عن ظاهر الشريعة لمن سموهم الأولياء ، أو أهل الكشف ، وقال فيها :

« وأما قصة الخضر - عليه السلام - وقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ (١) ، فيظهر به أنه نبى ، وذهب إليه جماعة من العلماء استدلالاً بهذا القول . ويجوز للنبى أن يحكم بمقتضى الوحى من غير إشكال ، وإن سلم فهى قضية عين ، ولأمر ما ، وليست جارية على شرعنا .

والدليل على ذلك أنه لا يجوز فى هذه المِلَّة لوليّ ، ولا لغيره ممن ليس بنبى أن يقتل صبياً لم يبلغ الحُلُم ، وإن علم أنه طُبِع كافراً ، وأنه لا يؤمن أبداً ،

---

(١) الكهف : ٨٢

وأنه إن عاش أرهق أبويه طغياناً وكفراً ، وإن أُذن له من عالَم الغيب فى ذلك ، لأن الشريعة قد قررت الأمر والنهى ، وإنما الظاهر فى تلك القصة أنها وقعت على مقتضى شريعة أُخرى ، وعلى مقتضى عتاب موسى عليه السلام ، وإعلامه أن ثَمَّ علماً آخر ، وقضايا أُخر لا يعلمها هو .

فليس كل ما اطلع عليه الولى من الغيوب يسوغ له شرعاً أن يعمل عليه ، بل هو على ضربين :

أحدهما : ما خالف العمل به ظواهر الشريعة من غير أن يصح رده إليه ، فهذا لا يصح العمل عليه ألبتة .

والثانى : ما لم يخالف العمل به شيئاً من الظواهر ، أو إن ظهر منه خلاف فيرجع بالنظر الصحيح إليها ، فهذا يسوغ العمل عليه . وقد تقدَّم بيانه .

فإذا تقرر هذا الطريق فهو الصواب ، وعليه يُربِّى المربى ، وبه يُعلِّق همم السالكين ، تأسياً بسيد المتبوعين رسول الله ﷺ ، وهو أقرب إلى الخروج عن مقتضى الحظوظ ، وأولى برسوخ القدم ، وأحرى بأن يُتابَع عليه صاحبه ، ويُقتدَى به فيه ، والله أعلم » [1] .

وقبل الشاطبى بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية بالأدلة : الغلط الذى وقع لأولئك القوم فى الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة ، مجتهداً أن يرد ما فعله الخضر إلى الشريعة .

ومما ذكره : أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ، ولا أوجب الله على الخضر متابعته وطاعته ، بل قد ثبت فى الصحيحين : « أن الخضر قال له : يا موسى ؛ إنى على علم من علم الله علَّمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علَّمكه الله لا أعلمه » ، وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة .

وقد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن النبى ﷺ أنه قال فيما فضَّله الله به

---

(١) الموافقات : ٢/٢٩٦ ، ٢٩٧

على الأنبياء ، قال : « كان النبى يُبعث إلى قومه خاصة ، وبُعِثتُ إلى الناس عامة » .

فدعوة محمد ﷺ شاملة لجميع العباد ، ليس لأحد الخروج عن متابعته وطاعته ، والاستغناء عن رسالته ، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته ، مستغنياً عنه بما علَّمه الله .

وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد : إنى على علم من علم الله علَّمنيه الله لا تعلمه .

ومَن سوَّغ هذا ، أو اعتقد أن أحداً من الخلق - الزُهَّاد والعُبَّاد أو غيرهم - له الخروج عن دعوة محمد ﷺ ومتابعته ، فهو كافر باتفاق المسلمين ، ودلائل هذا من الكتاب والسُّنَّة أكثر من أن تُذكر هنا .

وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة ، ولهذا لما بيَّن الخضر لموسى الأسباب التى فعل لأجلها ما فعل ، وافقه موسى ، ولم يختلفا حينئذ . ولو كان ما فعله الخضر مخالفاً لشريعة موسى لما وافقه .

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب يبيح له الفعل فى الشريعة ، والآخر لا يعلم ذلك السبب ، وإن كان قد يكون أفضل من الأول ، مثل شخصين دخلا إلى بيت شخص ، وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف فى منزله ، إما بإذن لفظى أو غيره ، فيتصرف ، وذلك مباح فى الشريعة ، والآخر الذى لم يعلم هذا السبب لا يتصرف .

وخرق السفينة كان من هذا الباب ، فإن الخضر كان يعلم أن أمامهم ملكاً يأخذ كل سفينة غصباً ، وكان من المصلحة التى يختارها أصحاب السفينة إذا علموا ذلك ، لئلا يأخذها . . خير من انتزاعها منهم .

ونظير هذا حديث الشاة التى أصابها الموت فذبحتها امرأة بدون إذن أهلها ، فسألوا النبى ﷺ عنها فأذن لهم فى أكلها ، ولم يُلزم التى ذبحت

بضمان ما نقصت بالذبح ، لأنه كان مأذوناً فيه عُرفاً ، والإذن العُرفى ، كالإذن اللَّفظى .

ولهذا بايع النبى ﷺ عن عثمان فى غيبته بدون استئذانه لفظاً .

ولهذا لما دعاه أبو طلحة ونفراً قليلاً إلى بيته ، قام بجمع أهل المسجد ، لما علم من طيب نفس أبى طلحة ، وذلك لما يجعله الله من البركة ، وكذلك حديث جابر .

وقد ثبت أن لحَّاماً ، دعاه فاستأذنه فى شخص يستتبعه ؛ لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللَّحام ما علمه من طيب نفس أبى طلحة وجابر وغيرهما .

وكذلك قتل الغلام ، كان من باب دفع الصائل على أبويه ، لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما ، وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين ، بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال .

فلهذا ثبت فى صحيح البخارى أن نجدة الحرورى (من رؤوس الخوارج) لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان قال : « إن كنتَ تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم ، وإلا فلا تقتلهم » (١) .

ونقل الحافظ ابن حجر فى « فتح البارى » عن الإمام القرطبى كلمة قيمة تعليقاً على قصة موسى والخضر وما يُستفاد منها من أحكام وعبر ، قال فيها :

« ولننبه هنا على مغلطتين :

الأولى : وقع لبعض الجهلة أن الخضر أفضل من موسى تمسكاً بهذه القصة

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ١١/ ٤٢٥ وما بعدها . وما ذكره عن ابن عباس هنا ، فإنما قصد به - كما قال السبكى - المحاجة والإحالة على ما لا يمكن ، قطعاً لطمعه فى الاحتجاج بقصة الخضر ، وليس مقصوده - رضى الله عنه - أنه إن حصل له ذلك يجوز القتل (انظر روح المعانى للألوسى : ١٦/ ١٧) .

وبما اشتملت عليه ، وهذا إنما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصة ، ولم ينظر فيما خصَّ الله به موسى عليه السلام من الرسالة ، وسماع كلام الله ، وإعطائه التوراة فيها علم كل شيء ، وأن أنبياء بنى إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته ، ومخاطَبون بحكم نبوته ، حتى عيسى ، وأدلة ذلك فى القرآن كثيرة ، ويكفى من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى ﴾ (١) .

قال : والخضر وإن كان نبياً فليس برسول باتفاق ، والرسول أفضل من نبى ليس برسول ، ولو تنزلنا على أنه رسول ، فرسالة موسى أعظم ، وأُمَّته أكثر ، فهو أفضل ، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بنى إسرائيل ، وموسى أفضلهم . وإن قلنا : إن الخضر ليس بنبىّ بل ولىّ ، فالنبىّ أفضل من الولىّ ، وهو أمر مقطوع به عقلاً ونقلاً ، والصائر إلى خلافه كافر ؛ لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة . قال : وإنما كانت قصة الخضر مع موسى امتحاناً لموسى ليعتبر .

الثانية : ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة فقالوا : إنه يُستفاد من قصة موسى والخضر : أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء ، وأما الأولياء والخواص ، فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص ، بل إنما يُراد منهم ما يقع فى قلوبهم ، ويُحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم ، لصفاء قلوبهم عن الأكدار ، وخلوها عن الأغيار . فتنجلى لهم العلوم الإلهية ، والحقائق الربَّانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ، ويعلمون الأحكام الجزئيات ، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات ، كما اتفق للخضر ، فإنه استغنى بما ينجلى له من تلك العلوم عما كان عند موسى ، ويؤيده الحديث المشهور : « استفتِ قلبك وإن أفتوك » .

قال القرطبى : وهذا القول زندقة وكفر ، لأنه إنكار لما عُلم من الشرائع ، فإن الله قد أجرى سُنَّته ، وأنفذ كلمته ، بأن أحكامه لا تُعلم إلاَّ بواسطة رسله ، السفراء بينه وبين خلقه ، المبينين لشرائعه وأحكامه ، كما قال الله تعالى :

---

(١) الأعراف : ١٤٤

﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَآئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (٢) ، وأمر بطاعتهم فى كل ما جاءوا به ، وحثَّ على طاعتهم والتمسك بما أمروا به ، فإن فيه الهدى . وقد حصل العلم اليقين وإجماع السَّلَف على ذلك ، فمن ادَّعى أن هناك طريقاً أخرى يعرف بها أمره ونهيه ، غير الطرق التى جاءت بها الرسل يُستغنى بها عن الرسول ، فهو كافر يُقتل ولا يُستتاب .

وقال : وهى دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبينا ، لأن مَن قال : إنه يأخذ عن قلبه ؛ لأن الذى يقع فيه هو حكم الله ، وأنه يعمل بمقتضاه ، من غير حاجة منه إلى كتاب ولا سُنَّة ، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة ، كما قال نبينا ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعى » .

قال : وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال : أنا لا آخذ عن الموتى ، وإنما آخذ عن الحى الذى لا يموت ! وكذا قال آخر : أنا آخذ عن قلبى عن ربى ! وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع ، ونسأل الله الهداية والتوفيق .

وقال غيره : مَن استدل بقصة الخضر على أن الولىّ يجوز أن يَطَّلع من خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة ، ويجوز له فعله ، فقد ضلَّ ، وليس ما تمسك به صحيحاً ، فإن الذى فعله الخضر ليس فى شىء منه ما يناقض الشرع ، فإن نقض لوح من ألواح السفينة لدفع الظالم عن غصبها ، ثم إذا تركها أعيد اللَّوح ، جائز شرعاً وعقلاً . ولكن مبادرة موسى بالإنكار بحسب الظاهر . وقد وقع ذلك واضحاً فى رواية أبى إسحاق التى أخرجها مسلم ولفظه : فإذا جاء الذى يسخِّرها فوجدها منخرقة تجاوزها فأصلحها . فيُستفاد منه وجوب التأنى عن الإنكار فى المحتملات . وأما قتله الغلام فلعله كان فى تلك الشريعة . وأما إقامة الجدار فمن باب مقابلة الإساءة بالإحسان » (٣) ، والله أعلم .

ومن هنا يتبين لنا أن العلم الشرعي لا يستغنى عنه أحد ، ولا يخرج عن حكمه أحد ، أيّاً كانت منزلته فى دين الله أو فى دنيا الناس .

فاللَّهُمَّ علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علَّمتنا ، وزدنا علماً ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤) .

* * *

---

(١) الحج : ٧٥ (٢) الأنعام : ١٢٤

(٣) فتح البارى : ١/ ٢٢١ ، ٢٢٢ - طبع دار الفكر . (٤) البقرة : ٣٢